وقفات عند الابتلاءات

الشيخ حمد بن حمود التميمي

بيت المقدس

1446 هـ

حقوق الطبع محفوظة

1446هـ 2025م

بيت المقدس

وقفات عند الابتلاءات

بقلم

حمد حمود التميمي

1439 هـ

بيت المقدس

مقدمة الناشر

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

بين أيدينا ثمرة رباط وجهاد طويل، للشيخ الشهيد كما نحسبه، حمد حمود التميمي – رحمه الله –. وهي تأليف جديد ينضم لنتاج كتبه، يحمل القراءات الأمينة والوصايا البليغة، كتبها رجل أَلِف ساحات المراغمة، وخاض ملاحم المصابرة، وبذل عمره في نصرة دينه وإعلاء كلمة ربه، وبقي إلى آخر رمق، مرابطا مجاهدا يرجو رحمة ربه، وإغاظة أعداء دينه، حتى ارتقى في خاتمة شرف، لطالما سأل الله تعالى فضلها. لذلك فإن ما نجده بين هذه السطور، ليس مجرد كتابات معتادة أو متداولة باعتياد، إنها كتابات تقتات على روح كاتبها، ومعانٍ مسبوكة تحفها أمانة التبليغ، وقوة المشاهدة وخبرة الحياة والمواجهة.

والحديث عن الابتلاءات بلسان المجاهد الشهيد، ليس كأي حديث، إنه حديث مخضّب بالحكمة والبصيرة، والشفقة، لأنه حديث يستلّ نوره، من عقيدة راسخة، وسنة متبعة، وميراث السابقين الأولين، واتباع لأثرهم في زمن استشرى فيه الوهن والقعود ومبررات العيش الذليل.

والشيخ حمد رحمه الله تعالى يكتب بقلم أبي، وأسلوب تربوي هادئ، وروح مطمئنة لحكمة الله تعالى راضية بأقداره، مبصرة لحكمة الله في خلقه ثم سبيل التمكين والفتح المبين، لذلك فإن خلاصاته لا تنشغل بـ"متى يكون النصر؟"، بل بـ"كيف يجب أن نكون؟" لتحقيق هذا النصر، وبين الموقعين، صناعة للتغيير ودرجات ارتقاء يتسابق عليها النجباء.

نسأل الله تعالى أن يجعل في ميراث الشيخ المجاهد الشهيد، دليل الحق ونصيحة الصدق، التي تعين المسلمين على تجاوز المرحلة الحرجة التي تعيشها الأمة، باستقامة وتضرع وعمل، لا يشوبه انحراف أو ظلم أو تهاون. والحمد لله على نعمة التواصي بالحق والصبر على سبيل الجهاد والشهادة.

اللهم تقبل الشيخ حمد حمود التميمي، وارفع درجته رفقة الأنبياء والصديقين والشهداء، وبارك في أثره وبذله، واكتب له سهاما في انتصارات وفتوحات أهل الثغور والجهاد المقبلة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبذة عن المؤلف

الشيخ المجاهد العابد الزاهد الورع حمد بن حمود العثمان التميمي، أبوعبد العزيز العدناني –رحمه الله تعالى–. من مواليد 1403هـ من منطقة نجد من مدينة حائل.

ابتدأ حياته –رحمه الله تعالى – كأحد عامة المسلمين، حياة رتيبة حتى منّ الله عليه بالهداية أثناء دراسته الجامعية في كلية الحاسوب. فابتدأ في تعلم أمور دينه، وزاد حرصه في التعلم حتى صار شغوفاً بالتحصيل والطلب فسابق أقرانه.

درس عند جمع من علماء بلاد الحرمين منهم الشيخ صالح الفوزان والشيخ عبد الكريم الخضير وغيرهم.

وسجن في سجون بلاد الحرمين بتهمة مناصرة الجهاد والمجاهدين في العراق إبان الغزو الأمريكي ومكث فيها قرابة الأربع سنين، فكانت فرصة له في الازدياد في الطلب والتحصيل والتزكية والعبادة.

بعد خروجه من السجن منّ الله عليه بالهجرة والنفير إلى اليمن، فكان نعم الشيخ المجاهد المعلم لإخوانه والمربي لهم بأفعاله قبل أقواله. وكان يصر على المشاركة في الأعمال العسكرية ويظهر عليه الفرح والسرور، وكان في عمله متفانياً دؤوباً حازماً مع سماحة ولين معشر وتواضع.

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، من الأدب والعفّة والنّزاهة، ذا شفقة على الأيتام والأرامل والمساكين، والغرباء.

له عدة مؤلفات ورسائل وبحوث لها قبول لدى المجاهدين منها:

- كتيب زاد المجاهدين.
- أحكام الجهاد الفردي.
- أحوال المنافقين مع الجهاد والمجاهدين.
- الأسباب الشرعية لحفظ العبد المجاهد وعمله.
- الإعلام وأهميته ودوره.

- الدفاع عن النبي ﷺ ونصرته.
- الرباط في سبيل الله.
- الصدام سمات وحقائق.
- الفردوس الأعلى فضائله وخصائصه وأسباب الوصول إليه.
- تشويق العباد إلى فضائل الجهاد.
- قمة السعادة في فضائل الشهادة.
- فضائل ومميزات العمليات الاستشهادية.
- جامع أوصاف الجنة. (الطبعة الأولى).

وأوصى بعد مقتله – رحمه الله – بنشر هذه الكتب:

- خواطر ومقالات.
- وقفات عند الابتلاءات. وهو الذي بين يديك.
- روم الوفاء للشهادة والشهداء. في ثلاث مجلدات.
- جامع أوصاف الجنة. (الطبعة الثانية).

مقتله:

كان رحمه الله شديد التعلق بمنزلة الشهادة والشهداء وأخبارهم، حتى قال مرة لأحد أصحابه: أكثر دعوة أدعو بها: "اللهم ألحقني بإخواني الشهداء"، حتى رأيت في المنام قائلاً يقول لي: "على خير حال"؛ فكان دعاؤه: "اللهم ألحقني بإخواني الشهداء على خير حال".

قُتل بغارة صليبية أمريكية وهو مرابط مجاهد –كما نحسبه – في ثغر الإعلام في غزة شعبان 1444هـ فرحمه الله رحمة واسعة وألحقه بالشهداء.

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد مرت بالجماعة المجاهدة فترة شدة وابتلاء استوجبت الوقوف على بعض المعاني في النصوص الشرعية التي تناسب ذلك الظرف، ثم تم جمعها وترتيبها من أجل أن تعم الفائدة، فجاءت هذه الرسالة إرشاداً للمجاهد في مسيرة جهاده بالوقوف والتمعن مع كل وقفة، لكي يواصل المسير على بينة، ويملأ وقود طاقته حتى يصل إلى النهاية تجنباً لعثرات الطريق والارتكاس على الأعقاب عياذاً بالله تعالى.

والله أسأل أن ينفع بها إخواننا المجاهدين وعامة المسلمين، وأن يعلي كلمته ويعز دينه ويقهر أعداءه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الوقفة الأولى: سنة الابتلاء

فإن الله تعالى خلق هذه الدنيا دار ابتلاء وفتنة وامتحان، وأوجد الخلق عليها لغاية ابتلائهم واختبارهم من نواحي كثيرة، من حيث الاستجابة لداعيه – أصالة – ورده، ومن حيث التمسك بدينه والارتداد عنه، ومن حيث طاعة أوامره والأخذ بها واجتناب النواهي وتقديم أمره ونهيه على غيره، ومن حيث الأخذ بأكمل الدين وأفضله، ومن حيث الثبات على المبادئ والنكوص والتراجع عنها، ومن حيث صدق الدعاوى وكذبها، ومن حيث شكر النعم وكفرها، ومن حيث الصبر على أقداره والاعتراض عليها، وغير ذلك، كما قال تعالى مبينا أن تكوين الخليقة جاء لحكمة الابتلاء والامتحان: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ وقال: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ وقال منكراً على من ظن أن الناس يمكن أن يتركوا بدون ابتلاء: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ وقال: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿**لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ وقال تعالى مثبتا أن الابتلاء لابد كائن: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**﴾ وقال مؤكداً: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾.

والابتلاء يقع على صعيدين: السراء والضراء، أو إن شئت اليسر والعسر، أو النعم والمصائب، كما قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ وقال: ﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ وقد جعل الله هذا الابتلاء سمة لازمة للدنيا لا ينفك عنها بأي حال من الأحوال، سواء أكان على مستوى الأمم أم المجتمعات أم الأفراد، فلا أحد يعافى مطلقاً من الابتلاءات ما دام من سكان الأرض ولكنها تتفاوت من شخص إلى آخر:

بنيت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأكدار والأقذار

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: "والسعيد من ذل لله، وسأل العافية؛ فإنه لا يوهب العافية على الإطلاق؛ إذ لا بد من بلاء، ولا يزال العاقل يسأل العافية، لتغلب على جمهور أحواله، فيقرب الصبر على يسير البلاء.

وفي الجملة: ينبغي للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته خالصة؛ ففي كل جرعة غصص، وفي كل لقمة شَجىً:

وكم من يعشق الدنيا قديمًا ولكن لا سبيل إلى الوصالِ

" انتهى.

وكلامنا في هذه الوقفة وغيرها من الوقفات الآتية إن شاء الله هو على الابتلاء بالضراء والمصائب والمكروهات في الجهاد خاصة، فإن هذه العبادة قد بنيت على المكروه؛ كما قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**﴾ وقد قرنت بالابتلاءات اقتران الضياء بالنهار، واقتران الاحراق بالنار، بل إنه ما من مكروه ومصيبة دقت أو جلت إلا وهي منصوبة في طريق الجهاد، قد يجتمع معظمها على العبد، وقد يسلم من بعضها لكنه لابد أن يرافقه البعض الآخر، فهو طريق معبد بثواقف الرماح ونصال السهام، ومحفوف بالأهوال والمخاطر والآلام، فكل خطوة فيه بألم، وكل تقدم تحرزه عليه فبجرح ودم، طريق صعب وعر مرير مليء بالعقبات والتبعات والتضحيات، وقوده العرق والدماء، والجماجم والدموع والأشلاء، طريق طويل بعيد المرام تقضى فيه السنون والأعمار، ويستبعده الكسول والمنافق والمتعجل، فالمقدم نحوه عزيز والثابت الصابر عليه أعز، ولهذا كان أكثر الخلق عنه بمنأى قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾.

يقول سيد قطب –رحمه الله– في الظلال: "لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة.. ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة.. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة..

وإنه لنموذج مكرور في البشرية.. ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة:

﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة.. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص.. كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور.. وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص!" انتهى.

وقد أخبر عمن يعبد الله على حرف أنهم يقولون عند الجهاد: **﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾** ولكن هذا الطريق المؤلم في مراحله هو في النهاية طريق المجد والرفعة والنعيم والجنة: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾** طريق الحسنيين: النصر والشهادة، وطريق العزة والتمكين في الدنيا وطريق الثواب الجزيل والدرجات العلى في الآخرة: **﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**.

فلا تنال الراحة إلا على جسر من التعب، ولا ينال المحبوب إلا بمباشرة المكروه، والنعيم لا يدرك بالنعيم

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولعظم الابتلاءات والمشاق على طريق الجهاد، جعل له من الثواب والأجر ما لم يجعل لغيره، تحريضا وتحفيزا للنفوس على خوض تلك الغمار الصعبة والبحار المتلاطمة.

قال الشيخ عبد الله عزام: "أيها الإخوة: على تلال الجماجم صنع مجد هذا الدين أول مرة وبمثلها في كل مرة يصنع، وعلى جبال الأكداس من الأشلاء أقام عزته وبنى دولته، وفي كل مرة تبنى، وعلى بحور الدماء سارت سفينته وفيها القوم يرددون نشيدهم العذب:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

وعلى طول الطريق المرير يتجرعون الغصص ويكابدون الأهوال، يسمعون أنات الثكالى، وآهات اليتامى، وصرخات الأيامى، إلا أنهم لا يفتؤون يرددون:

﴿قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

الطريق طويل ولكن العذابات مستعذبة والغصص مستحلاة في أعماق القلوب، لأنهم وضعوا نصب أعينهم وصية قائدهم ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه**» «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**» يستعذبون العذاب ويستحلون النصب على طول الجادة الطويلة، المروي بالدماء المفروش بالأشلاء تزينه أرواح الشهداء.

لأنهم تعلموا من المصطفى ﷺ.. تعلموا: «**من خير معاش المرء رجل آخذ بعنان فرسه يطير على متنه كل ما سمع هيعة أو فزعة طار إليها يبتغي الموت مظانه**».

وكيف يترددون، وأنى لهم يتلكؤون ومن أعقابهم حادي..:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ " انتهى.

ومن استعرض سيرة المصطفى ﷺ وغزواته وسراياه يجد معلم الابتلاء والعسر جليا ملازما للجهاد، وهذا ما سنأتي عليه بشيء من التفصيل إن شاء الله في وقفات قادمة، ومن أجل هذا تأتي نصوص كثيرة في الجمع بين الصبر والثبات والجهاد؛ لأن من أهم عناصر بقاء الجهاد وبلوغ ثمرته هو الصبر والثبات على طريقه الشاق، قال تعالى: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ وغير ذلك من النصوص، فلا يمكن للجهاد أن يقوم بدون صبر يسنده وثبات يرسو عليه، وإن أول طريق للصبر والثبات على درب الجهاد هو فهم طبيعة هذا الطريق كما سبق، وتوطين النفس على تحمل أعبائه وتبعاته، حتى لا يتفاجأ بواقع الجهاد وحاله من يظن أنه مفروش بالورود والرياحين وأنه مجرد نزهة مسلية أو سفر قصير، فينصدم ويعود من أول الطريق أو منتصفه، وكم مر على أهل الجهاد أناس سلكوا معهم الطريق ولكن مع توالي الامتحانات وتتابع الابتلاءات إما أن يعودوا إلى الوراء تاركين لنعمة الجهاد التي أنعم الله عليهم بها خاذلين لأهله، وربما مخذلين عنه، مغطين على نقصهم بعدم الصبر على الطريق والثبات عليه بعيب الجهاد وأهله، وإما أن يتساقطوا في حفر الطاغوت ويقعوا في براثنه ويجروا في أهوائه والعياذ بالله، ولهذا فإن الله تعالى في أعقاب ما حصل من ابتلاء المسلمين يوم أحد يأتي التحذير من الله تعالى من طاعة الكافرين فيقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾ ويكرر الله تعالى التحذير في نفس السورة فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ لأن ذلك الظرف وتلك البيئة مناسبة لأن تبرز أعناق المنافقين، ويثيروا شبهاتهم السيئة ويروجوا بين المسلمين لناعق الكفار بالعودة والنكوب عن الطريق.

لذا فإن هذا الطريق يحتاج إلى رجال أقوياء القلوب، أشداء النفوس، يتحملون الأعباء، ويتجلدون للأعداء، وعيونهم على الهدف لا تزيغ، وأما أصحاب النفس القصير، والقلوب الخائرة، والعزائم الهشة، وعشاق الدعة والراحة، فما أسرع أن يولي دبره وينكص على عقبيه.

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت في مرادهـــا الاجســـام

وقد جاء القرآن مبيناً أقسام الناس تجاه عبادة الجهاد وما يكون فيه من الابتلاءات والقيام بها، وذلك في قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه ضد الأعداء:

فالقسم الأول: المتساقطون بالابتلاء بفرضية الجهاد العام والأمر به:

وهذا حال عامة الناس كما قال تعالى في تلك القصة: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ فأخبر الله تعالى أنهم تركوا ما افترضه عليهم من الجهاد إلا قليلا منهم، فإن القتال مكروه للنفوس، والنفوس عند العافية تدعي أمرا وعندما تبتلى لا تطبق ما ادعته إلا من رحم الله.

وهذا الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**﴾.

وقوله: ﴿**وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾.

القسم الثاني: المتساقطون لأجل الحظوظ النفسية من منصب وجاه وإمارة ورؤية للنفس ونحوها:

وذلك في اعتراض بعض الملأ في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ وهذا كثير ما يقع سواء قبل الجهاد أو أثناءه، أما الأول فشخص لا يريد الخروج للجهاد أصلاً حتى يكون له منصب وشرف ويوضع في مكانه الذي يريده هو، وأما الثاني فشخص خرج للجهاد ولكن عاد عنه وتركه لأجل حظ من حظوظ النفس من حب المناصب والشرف والتطلع أو رؤية للنفس وخصوماتها مع الآخرين ونحو ذلك.

القسم الثالث: المتساقطون لأجل الابتلاء في طريق الجهاد:

وهذا حال بعض من خرج للجهاد ثم انتكس عنه لما فتن وامتحن في طريقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ فأخبر الله تعالى أنهم ابتلوا بالشرب من النهر وهم في طريق شاق فشربوا منه ولم يلتفتوا إلى الأمر الذي أمروا به، فلم يجاوز نهر الابتلاء إلا المؤمنون.

القسم الرابع: المؤمنون الثابتون:

وهم عامة المجاهدين الصادقين الذين ثبتوا على طريق الجهاد مع ترادف الابتلاءات، وهؤلاء قد تتزلزل نفوسهم لبعض الأحداث العظيمة التي تمر على المجاهدين، وقد تهجم عليه الخواطر السيئة لكونهم بشر، ولكنهم في نهاية المطاف يثبتون ويواصلون المسير.

وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ قال البراء كما رواه البخاري عنه: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن».

القسم الخامس: الموقنون الثابتون المثبتون:

وهم الذين يوقنون بوعد الله، ويحسنون الظن به عند اشتداد الأزمات وتعاظم الكربات، ويثبتون من معهم من عامة المؤمنين المجاهدين، وذلك كما قال تعالى في الآية التي سبق الإشارة إليها: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ فهؤلاء أيقنوا بوعد الله بالغلبة وثبتوا إخوانهم المجاهدين.

ويمكن تسمية من يخرج إلى الجهاد عامة بالجنود، كما قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**﴾ وهذه تسمية ظاهرية لا تحمل معها تزكية معنوية، ومن هؤلاء الجنود المنتكسون ممن لم يثبت عند الابتلاء وليسوا من أهل الإيمان والجهاد، ومنهم المؤمنون، ومنهم الموقنون.

وهذه القسمة الخماسية للناس بالنسبة للجهاد، لازالت توجد في كل عصر ومصر وحتى زماننا هذا، نسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه.

ويجب على المجاهد في سبيل الله أن لا يتأثر بخذلان القاعدين ونكوص السالكين؛ فإنهم لن يضروا دين الله تعالى ولن يضروا إلا أنفسهم، فدين الله منصور بهم أو بغيرهم، وسنة الاستبدال قائمة ودائمة، يقول تعالى عن القاعدين: ﴿**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا**﴾ ويقول عن الناكصين الذين كفروا نعمة الجهاد بتركهم إياه: ﴿**وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا**﴾ ويقول للمجاهدين الذين قدروا هذه النعمة وحافظوا عليها في نفس الآية التي تتحدث عن الناكصين: ﴿**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾ ويقول تعالى عنهم أيضا: ﴿**وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ ويقول ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**» متفق عليه.

وقد جاءت هذه الوقفات التي نريد أن نفصلها في حلقات قادمة بإذن الله، لتبين بعض المعاني التي ينبغي على من سلك درب الجهاد أن يتفهمها ويستحضرها، كلما تبدلت أحواله وتقلبت أموره وتعرض للابتلاءات، حتى تكون معينا له على الصمود والثبات والصبر والمصابرة، ونبذ الوهن والتراجع والهزيمة وفتور العزيمة.

***

الوقفة الثانية: شؤم المعاصي

فإن الله تعالى حكم عدل قائم بالقسط، لا يظلم مثقال ذرة ولا يعاقب أحد إلا بكسبه ولا يؤاخذ عبداً إلا بظلمه، أرسل الرسل في بيان أوامره وشرائعه، وقدم النذارة والتحذير من مخالفتها، فمن أطاع فله جزاء الحسنى، ومن عصى فعليه شؤم معصيته ووبال ظلمه لنفسه، وهو مستحق بذلك للعقوبة من الله عز وجل.

والعقوبة التي تقع على العبد بسبب معصيته منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في الآخرة، ومنها ما يكون في الدارين، وذلك بحسب عظم الجرم والذنب واستيفاء العقوبة له، فقد تعجل العقوبة للعبد في الدنيا فيراها حاضراً في نفسه وماله وأهله وغير ذلك مما يؤلمه، وقد يؤخر عنه بذنبه حتى يعاقب عليه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾، وقد يعاقب عليها في الدنيا ولكن العقوبة لا تستوفي الجرم لعظمه فيستوفيها في الآخرة كما قال تعالى: ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ**﴾ وقال في آية أخرى: ﴿**فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

وكل ما يصيب العبد في الدنيا من المصائب والمكروهات مهما دقت وصغرت سببها الذنوب وما جنت يداه، فلا يصيب العبد شيء يكرهه إلا كان بما كسبت يداه كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ وقال في آية أخرى: ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ وقوله: ﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا**﴾ وقال أيضا: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ وقال في موضع آخر: ﴿**وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ**﴾.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: "ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه: أن المعاصي سبب المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة فإحسان العمل سبب لإحسان الله" انتهى.

وقال ابن القيم في المدارج: "فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾" انتهى.

فالمكروهات والمصائب في الدنيا هي عقوبة على السيئات والخطايا التي يقترفها العبد، ومن رحمة الله تعالى أن جعلها تكفيراً لسيئاته ومحواً لخطاياه، فعن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة – رضي الله عنهما –: عن النبي – ﷺ – قال: «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه**» متفق عليه.

عن عائشة – رضي الله عنها – زوج النبي – ﷺ – قالت: قال رسول الله – ﷺ –: «**ما من مصيبة تصيب المسلم؛ إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها**» متفق عليه.

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض، فما سواه إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**» رواه مسلم.

وهذه العقوبات على المعاصي بالمصائب والمكروهات؛ كما تقع في عامة أمور الدنيا فإنها تقع في الجهاد أيضاً، فليس أهل الجهاد بمنأى عنها أو منزهين عن حصولها، فقد وقعت لمن هو أشرف وأفضل منهم من صحابة رسول الله ﷺ في وقعة أحد، عندما عصى الرماة أمر رسول الله ﷺ بعدم ترك مواقعهم مهما حدث، ولكنهم خالفوا الأمر، وكانت الدائرة للمسلمين في أول المعركة فلما حصلت المخالفة دارت الدائرة على المسلمين، ولحقت بهم الهزيمة، وقتل من خيار الصحابة سبعون رجلاً وقتل عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب ومثل به، وجرح رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وشج وجهه، وعمت المصيبة، فتساءل المسلمون حينئذ واستشكلوا، كيف يقع هذا وتلحق بنا الهزيمة والقتل؟ والله مولانا ورسول الله ﷺ معنا؟ ونحن أهل الحق وصحابة نبيه؟ فأنزل الله تعالى في جواب هذا التساؤل منهم: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فسنن الله لا تحابي أحدا فأخبر تعالى أن الصحابة لما تساءلوا كيف يصيبنا هذا؟ رد عليهم بقوله: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**﴾ أي: أنتم السبب في حصولها ووقوعها عليكم بالمعصية والذنب، وقال أيضا يبين سبب فرار بعض المسلمين يوم أحد: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في الجواب الصحيح: "وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار" انتهى.

قال ابن القيم في البدائع: "فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره" انتهى.

فعند وقوع المصائب والمكروهات في الجهاد على العبد، فعليه أن يراجع نفسه ويعود عليها بالعتب، ويعلم أن ما أصابه هو من قبل نفسه وما اكتسبت يداه وهو عين العدل، ويستغفر الله تعالى من خطيئته ويعلنها توبة صادقة بين يديه، فما حل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة، ومع ذلك فإنه يحسن الظن بالله تعالى في هذا الموطن، فيظن به سبحانه أن هذا الذي قدره من المكروه والمصيبة فيه من الحكم والمنح والمصالح الشيء العظيم، فكما أن ما وقع للصحابة يوم أحد كان بسبب المعصية، فإنه حمل في طياته حكماً عظيمة ومنحاً جليلة بينها الله تعالى في كتابه، وقد ذكر سبحانه شيء منها مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فقال ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ وسنأتي على ذكرها في وقفة لوحدها بإذن الله تعالى.

قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل: "وهو سبحانه لا يعذب أحداً إلا بذنبه بمقتضى الحكمة والعدل، وفي تعذيبه أنواع الحكمة والرحمة، وهذا ظاهر فيما يبتلى به المؤمنين في الدنيا من المصائب التي هي جزاء سيئاتهم، فإن في ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ما هو بين لمن تأمله، ولا يعاقب أحداً إلا بذنبه، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم من مُصِيبَة فبمَا كسبت أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَن كثير**﴾" انتهى.

يقول سيد قطب –رحمه الله– في الظلال: "لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته.. ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم وباستكمال العدة التي في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم.. فهذه سنة الله.. وسنة الله لا تحابي أحداً.. فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير.. فإن كونهم

مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس.. فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس.

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدراً كذلك، ولا يضيع هباء.. فإن استسلامهم لله، وحملهم لرايته، وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه.. من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية – بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح – وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب، تزيد في نقاء العقيدة، وتمحيص القلوب، وتطهير الصفوف وتؤهل للنصر الموعود وتنتهي بالخير والبركة.

ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته.. بل تمدهم بزاد الطريق.. مهما يمسهم من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق." انتهى.

فكون المصيبة عقوبة على ذنب لا يعارض هذا حسن الظن بالرب، والثقة به سبحانه، فالعبد يرجو ربه، ويخاف ذنبه، فالأول يحمله على العمل والمضي، والثاني يحمله على التوبة والاستغفار والانكسار، وهذا من أحب الأعمال إلى الله تعالى، وقد أثنى الله تعالى على بعض المؤمنين ممن سبقنا من أهل الكتاب مع كونهم قد قدموا التضحيات وأصيبوا في سبيل الله وقتل منهم جماعات كثيرة، فإنهم رجعوا على أنفسهم وأقروا لله تعالى بذنبهم فقال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ فكان جزاؤهم أن قال الله فيهم: ﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

أيَضمَنُ لِي فَتىً تَرْكَ المعَاصِي وأرهنُهُ الكفالةَ بالخلاصِ
أطَاعَ الله قومٌ فَاستَرَاحُوا ولمْ يتجرعُوا غصصَ المعَاصي

***

الوقفة الثالثة: حِكم الابتلاء

فإن هذا الكون بجميع ما فيه يجري على مشيئة الله تعالى وقدره، ولا يخرج شيء منه عن تقديره وتدبيره، والله عز وجل حكيم له الحكمة البالغة والإرادة النافذة في كل ما يقضيه على عباده، فلا يقع شيء إلا ووراء وقوعه وكونه حكم وعبر، علم الخلق بعضها وجهلوا جلها، ومهما بلغ العبد في العلم والعقل والإيمان والفهم فلن يستوعب إلا شيئاً يسيراً من حكم الله تعالى في أقداره، فواجب العبد للتسليم لأقدار الله تعالى وما يجري عليه من فتن وابتلاءات، ظهرت له حكمتها أم غابت عنه، وهو من الإيمان بالقضاء والقدر، فلا أنفع للعبد من الرضا والتسليم لأقدار الله تعالى والخضوع له وعدم الاعتراض على تدبيره وخلقه: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾.

ومع ذلك فإن لله تعالى حكماً تظهر في خلقه وأفعاله ومقضياته، ذكر الله تعالى بعضها في كتابه وبعضها يفهمها المؤمن الناظر المتأمل، البصير بأسماء الله تعالى وصفاته، الذي علم سنن الكون وقانونه الذي يجري عليه، فتظهر له من حكم الله تعالى في الابتلاء والمصائب ما يزيد بها إيمانه ومحبته لله تعالى، ويزيد بها صبره وثباته، بل قد تنقله من مرتبة الصبر على البلاء إلى مرتبة الشكر لله، برؤية النعمة والخير في ذاك البلاء، فكم من محن في طياتها منح، كما قال تعالى: ﴿**فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ فقد يكون في الابتلاء بالمكروهات الإكرام والرفعة والمنحة، ويقع في النعمة الابتلاء والفتنة والعذاب كما قال تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ ويقول في هذا المعنى أيضا: ﴿**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا**﴾ أي: ليس الأمر كذلك فقد:

يـنعم الله في البلـوى وإن عظمـت ويبتلـي الله بعـض القـوم بالـنعمِ

وهنا يظهر معنى من معاني اسم الله تعالى اللطيف بأنه يخفي الأمور في صور أضدادها، كما أخفى ليوسف – عليه السلام – الملك والتمكين في إلباس ثوب الرق عليه، وقال في خاتمة سورة يوسف: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ**﴾.

وكل ما يقضيه الله تعالى للمؤمن من ضراء أو سراء، فإنه خير له إن صبر وشكر كما قال – ﷺ –: «**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: «**من يُرِدِ الله به خيرا يُصِبْ منه**» رواه البخاري، وقال – ﷺ – في وصيته لابن عباس: «**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**» رواه أحمد.

لا تكره المكروه عند نزوله إن المكاره لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في جنب المكاره كامنه

وهذا كما يجري في عامة أقدار الله تعالى للمؤمن في حياته، فإنه يجري في أقدار المجاهدين والابتلاءات التي تصيبهم على الطريق من هزيمة وشدة وعسر ومشقة وغير ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون**﴾.

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طي الحوادث محبوب ومكروه
فربما سرني ما بت أحذره وربما ساءني ما بت أرجوه

قال الإمام ابن القيم في الفوائد: "في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد" انتهى.

قضَى اللهُ في بعضِ المكاره للفتى برُشدٍ وفي بعض الهوَى ما يُحاذرُ

وقد نزلت عدة آيات في كتاب الله تعالى عقب بعض الغزوات تبين بعض هذه الحكم والغايات وتشير إليها، لتجيب عن تساؤلات تدور في القلوب وخواطر تجول في النفوس: كيف يحصل لنا هذا الأمر ونحن جند الله ونقاتل في سبيله ومن أجله وهو ولينا؟ خصوصاً ما نزل عقب هزيمة المسلمين يوم أحد، ومن أبرز الحكم وراء تلك المصائب هو امتحان الله لعباده وابتلاؤهم من يقوم بأمره ومن يثبت على دينه وشرعه كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**﴾ وقال تعالى في ثنايا أحداث غزوة أحد: ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ وقال أيضا في حكمها: ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾.

ويرحم الله ابن القيم حين قال:

والله ناصر دينه وكتابه ورسوله في سائر الأزمان
لكن بمحنة حزبه من حربه ذا حكمة مذ كانت الفئتان

والابتلاء والامتحان يترتب عليه حكم عظيمة ومرادات محبوبة للشارع، قد لا توافق في الأغلب محبوبات البشر وإن كانت هي المفضلة لديهم، لما جبلوا عليه كما قال تعالى في غزوة بدر وقد وعدهم إما أن يغنموا القافلة وإما أن يواجهوا الكفار وينتصروا عليهم: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ فأخبر أن الوعد يمكن أن يتحقق في إحراز القافلة دون الدخول في مواجهة مع الكفار، ولكن الله تعالى اختار ما هو الأصلح والأنفع لهم، من إحقاق الحق وإعزاز الإسلام، وقطع دابر الكافرين وحصد أئمتهم، وغير ذلك مما ترتب على غزوة بدر من المصالح العظيمة التي كانت أعظم من الظفر بالقافلة؛ بل لا تقارن بها، والتي لم تكن لتحقق هذه المصالح لو سار الأمر على ما يحب المسلمون.

وقد تكلم الامام ابن القيم عن حكم الابتلاءات الذي تحدث للمؤمنين في الجهاد مستقياً من أحداث وقعة أحد أنقله هنا باختصار فقال – رحمه الله –:

"**[فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد]**

وقد أشار الله – سبحانه وتعالى – إلى أمهاتها، وأصولها في سورة آل عمران حيث افتتح القصة بقوله: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**﴾.

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة وتحرزاً من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انْتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به؛ ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة».

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سَبَّبَ لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا

يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾.

أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين؛ حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا، وليسوا كمن يعبد الله على حرفٍ واحدٍ من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة – أي: عطية – النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ وقال: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا**﴾ فهو – سبحانه – إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جَدّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**﴾ فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولاً بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ تنبيه لطيف الموقع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس، وأيضاً فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه فقال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال: ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾.

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾ .

ومنها: أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب مُحَمَّد وهو حي لا يموت، فلو مات مُحَمَّد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث مُحَمَّد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صرخ الشيطان إن مُحَمَّداً قد قتل، فقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم، وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم؛ من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي؛ وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة؛ وهو الذنوب والإسراف، ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد." انتهى.

ومما ذكره ابن القيم في الحكم ويحتاج إلى شيء من البسط، هو كلامه عن حكمة الابتلاء لحصول الأجر والثواب ورفعة الدرجات للمبتلى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا**

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والظمأ: هو العطش.

والنصب: هو التعب والإعياء.

والمخمصة: هي الجوع.

وقد قسم شيخ الإسلام في الفتاوى المصائب على قسمين:

مصائب يكون سببها القيام بطاعة الله.

ومصائب لا يكون سببها القيام بطاعة الله.

فالأولى: يكون فضلها أنها تكفر السيئات، ويؤجر على الصبر عليها، وتكون هي في نفسها عمل صالح يؤجر عليه كسائر الأعمال الصالحة، وقد استدل بالآية السابقة، فإن فيها الظمأ والنصب والمخمصة وكلها مصائب في سبيل الله، وقرن ذكرها بالأعمال الصالحة كالنيل من العدو وقال في آخرها: **﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ عمل صالح﴾.**

وأما الثانية: فإنها تكون مكفرة للسيئات، ويؤجر على الصبر عليها، ولا يؤجر عليها في نفسها.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: "فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة – وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه – فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب، ويكتب له بها عمل صالح، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.**

بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها، لا على نفس ما يحدث من المصيبة؛ لكن المصيبة يكفر بها خطاياه، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها. والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به، ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها متولدة" انتهى.

وعلى هذا المصائب في الجهاد كلها كأنها أعمال صالحة كالصلاة والصيام وغيره.

وقد جاء عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم**» رواه مسلم.

وفي رواية: «**ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم**» رواه مسلم.

قال ابن دقيق العيد في الإحكام: "إن نقص أجر الغانم بما فتح الله عز وجل عليه من الدنيا، وحساب ذلك بتمتعه عليه في الدنيا، وذهاب شظف عيشه في غزوه وبعده، إذا قوبل بمن أخفق ولم يصب منها شيئا، وبقي على شظف عيشه والصبر على غزوه في حاله، وُجِدَ أَجْرُ هذا أبداً في ذلك وافياً مطرداً؛ بخلاف الأول، ومثله في الحديث الآخر: «فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئاً، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها»" انتهى.

والمراد أن للابتلاءات والمصائب في الجهاد حكماً جلية ومصالح جمة، إنما تبرز للمؤمن بقدر الله، والموقن بوعده، والمحسن الظن به سبحانه، أما من كان من صنف الطائفة التي أهمتهم أنفسهم فإنهم يرجعون على القدر بالاعتراض وعلى الأمر بالتبرم والعتب، ولا يرون إلا ظاهر الألم والعذاب، ويخفى عليهم باطن الرحمة وجانب الألطاف الإلهية.

لعـل عتبـك محمـود عواقبـه فربما صحت الأجسام بالعلل

***

الوقفة الرابعة: الدورة السننية

فقد جرت سنة الله تعالى أن الدنيا لا تمضي على حال واحدة من النعيم أو الشقاء أو العافية أو البلاء، بل طبعها الله على تقلب في الأحوال وتغير في المآل، ودوام الحال من المحال، سواء أكان ذلك على سبيل الفرد أم على سبيل المجتمعات وكذلك الدول والأمم، وهذا يعلمه الانسان ضرورة، وهذا التقلب من آثار أسماء الجلال وصفات الكمال للخالق سبحانه، من البسط والقبض، والرفع والخفض، والعطاء والمنع وغير ذلك، ومما جرت به سنة الله تعالى أيضاً أن الصراع بين الحق وأهله والباطل وأهله سنة متداولة ومتداورة من حيث النصر والهزيمة في الميدان، ومن حيث تبادل النيل والنكاية وما يترتب على ذلك من الآلام، ومن حيث البلاء والعافية والشدة والرخاء والأفراح والأتراح، كما قال تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ**﴾.

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

ولهذا نهى الله تعالى عن الاغترار بتعاظم قوة الكفار وانتشار دولتهم، فإن هذا شيء لا يدوم لهم، كما قال تعالى: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**﴾.

قال ابن خلدون – رحمه الله – في تاريخه: "ومن الغلط الخفيّ في التّاريخ؛ الذّهول عن تبدّل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدّل الأعصار ومرور الأيّام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلّا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطّن له إلّا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون

ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدّول: ﴿**سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**﴾" انتهى كلامه.

وقد يروق أن نسمي هذه الظاهرة الكونية في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل بالدورة السننية، أما الدورة فقد جاء تفسير التداول في بعض كتب اللغة بالتداور والعكس، وكذا جاء تفسيره في كتب التفسير وبعض أئمة السلف كمجاهد وكذا فسرها بذلك البخاري – رحمه الله – في صحيحه وهو ما دلت عليه النصوص الشرعية فقد قال تعالى عن منافقي الأعراب: ﴿**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**﴾ وقد جاء في سيرة ابن إسحاق: أن أبا جهل سأل ابن مسعود بعد انتصار المسلمين في بدر: "لمن الدائرة اليوم؟ فقال ابن مسعود: لله ورسوله"، وجاء أيضاً في سيرة ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال يوم أحد للرماة: «**انضحوا الخيل عنّا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا!! إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أماكنكم، لا نؤتينّ من قبلكم**».

وفي حديث ابن مسعود – ﷺ – في الملحمة الكبرى الكائنة بين المسلمين والروم في آخر الزمان: «**فإذا كان الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فجعل الله الدائرة عليهم**» رواه مسلم.

وهذه النقول تفيد أنهم كانوا يستعملون في النصر (اللام) فيقولون الدائرة لفلان، وفي الهزيمة (على) فيقولون الدائرة على فلان.

فهذه الدورة السننية في تداور الأمر بين أهل الحق وأهل الباطل لابد كائنة شاء من شاء وأبى من أبى من الفريقين، فوقوع الهزيمة في الطرفين، وتطرق النيل والنكاية من طرف لآخر والعكس أمر حتم لابد منه، والمغايرة بين الشدة والرخاء واليسر والعسر واقع مفروض لا مرد له، والفرق بين تداول النصر والهزيمة وتداول النكاية والنيل؛ أن النصر والهزيمة لابد أن يقع في مواجهة بين الطرفين، وأما النكاية والنيل فقد يقع مع المواجهة، وقد يقع نيل ونكاية بدون مواجهة كما يحصل في أن يغنم من الأعداء قافلة تجارية ونحو ذلك، وأما الشدة والعسر فأمر يشمل ذلك كله بالإضافة إلى الفقر وقلة ذات اليد والحصار والخوف والأتراح ونحوه، فكل ما سبق داخل في الشدة والعسر.

وهذا الأمر كما قيل:

فيــوم لنــا ويــوم علينــا ويــوم نســاء ويــوم نســر

ويقول الشاعر المجاهد أسامة بن منقذ – رحمه الله –:

يهون الخطب أن الدهر ذو غير وأن أيامــه بــين الــورى دول
وأن مـا سـاء أو مـا سـر منتقـل عنــا وإلا فــإنا عنــه ننتقــل

قد تتعاظم الشدة وتزداد، ويعظم نيل الأعداء وتغلب دولتهم وتشتد صولتهم في الحقيقة الحسية في زمن من الأزمان، كما يغلب وقت الليل على وقت النهار في بعض الدول في موسم من المواسم الحولية، فتكون معظم ساعات اليوم هي في الليل وساعات قليلة للنهار، وقد يطغى اليُسر والرخاء ويعظم نيل أهل الحق وتغلب دولتهم وتشتد صولتهم في زمن من الأزمان كما يغلب وقت النهار على وقت الليل في بعض الدول في موسم من المواسم الحولية، ويكون لليل سويعات قليلة، وقد يتساوى الأمران كما يتساوى الليل مع النهار في أحوال، ولكن في الجملة يبقى النيل من الأعداء موجوداً على مر الأزمان ما بقيت الطائفة المنصورة الذين يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة، فلا يمكن أن يكون هناك ليل مطلق ما دامت هذه الطائفة موجودة.

الـدهرُ يومـانِ ذا أمـنٌ وذا حـذرٌ العيشُ شـطران ذا صـفوٌ وذا كـدَرُ

ومن نظر في سيرة النبي – ﷺ – وحوادث التاريخ ومجريات العصر يرى هذا واضحاً جلياً، كما جاء ذلك في سنن أبي داود ومسند الطيالسي عن أوس بن حذيفة الثقفي قال: «قدمنا وفد ثقيف على النبي – صلى الله عليه وسلم –، فنزل الأحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبته، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الآخرة حتى يراوح بين قدميه من طول القيام، فكان أكثر ما يحدثنا اشتكاء قريش يقول: «**كنا بمكة مستذلين مستضعفين فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم فكانت سجال الحرب علينا ولنا**»».

وفي البخاري من رواية ابن عباس – رضي الله عنهما – حين لقي أبو سفيان بن حرب هرقل قيصر الروم، وسأله عن حال النبي – ﷺ –، فكان مما سأله: «فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دولاً وسجالاً، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى» وفي رواية أخرى في الصحيح: «ينال منا وننال منه».

وفي مسند الإمام أحمد أن غزوة أحد لما انتهت بالهزيمة التي لحقت بالمسلمين، واجتمع النبي ﷺ ومن بقي من أصحابه في جبل أحد، وقف أبو سفيان أسفل الجبل يخاطبهم وقال: «يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سجال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار».

فبعد الشدة والابتلاء الذي لحق بالمسلمين بمكة قبل الهجرة وكذلك قلة ذات اليد والاستضعاف الذي لحق بالمهاجرين والأنصار في المدينة بعد الهجرة، شرع الله تعالى الجهاد وأذن به.

حاول المسلمون أكثر من مرة في التعرض لعير قريش، لكن لم تفلح أي محاولة منها في الحصول على الغنائم، ولكن حدثت عدة مناوشات بين المسلمين والمشركين، كما في سرية سيف البحر وسرية الخرار غزوة الأبواء وسرية عبيدة بن الحارث وغزوة بواط.

ثم أغار كرز بن جابر الفهري عندما كان مشركاً على سرح المدينة ونهب بعض الإبل والمواشي وفر بها.

ثم جاءت غزوة العشيرة في اعتراض عير لقريش ولكنها أفلتت.

ثم جاءت سرية نخلة في رصد عير لقريش، فحدثت نكاية في العدو بقتل المسلمين لرجل من المشركين وأخذ أسيرين من المشركين ووقوع العير غنيمة للمسلمين، ولكن حدث ذلك في نهاية الأشهر الحرم، فنالت قريش إعلامياً من المسلمين وشوهت صورتهم أمام بقية العرب حتى نزل القرآن بالرد عليهم.

ثم جاء اليُسر والفرقان العظيم بغزوة بدر الكبرى، وأسفرت المعركة عن نصر الله للمسلمين ووقوع الهزيمة على المشركين، وقتل من المشركين سبعون رجلاً، منهم عدة من رؤوس الكفر كأبي جهل وأمية بن خلف والعاص بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وتم أسر سبعين من المشركين ومفاداتهم لدى قريش، وتم غنم معسكر المشركين وقتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً.

ثم بعد ذلك وقعت غزوة يهود بني قينقاع، وتم إجلاؤهم عن المدينة وغنيمة المسلمين لديارهم وأموالهم، فحصل بذلك بعض الأستيسار.

ثم بعد تسلل أبو سفيان مع مائتي فارس إلى المدينة –كما جاء في سيرة ابن إسحاق – ثم قام بمهاجمة ناحية العريض – واد بالمدينة – فقتل رجلين وأحرق نخلاً وفر إلى مكة، فلحق به النبي ﷺ وجماعة من أصحابه، ولكنه أفلت، وسميت بغزوة السويق.

ثم بعد ذلك غزا النبي – ﷺ – والمسلمون جمعاً من بني سليم وغطفان، ففروا من أمامه وتركوا أنعامهم غنيمة باردة للمسلمين.

وبعدها سرية القردة إذ أرسل الرسول – ﷺ – سرية بقيادة زيد بن حارثة – رضي الله عنه – لاعتراض عير لقريش، فاعترضها ووقعت العير غنيمة للمسلمين.

ثم وقعت بعد ذلك الفاجعة بمعركة أحد بعد اليُسر السابق، فدارت على المسلمين المعركة ولحقتهم الهزيمة، وقتل من خيار الصحابة سبعون رجلا، منهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، ومُثّل به فبقر بطنه وجدع أنفه وأذناه، ومنهم مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش وأنس بن النضر – رضي الله عنهم – ووجد في جسد أنس بضع وثمانون من بين ضربة ورمية وطعنة ولم يعرف إلا ببنانه، ومنهم عمرو بن الجموح وسعد بن الربيع وحنظلة الغسيل وعبد الله بن حرام وغيرهم من الصحابة – رضوان الله عليهم – وأصيب النبي ﷺ بجراحات فكسرت رباعيته وشج وجهه وكسرت البيضة على رأسه وسال دمه فجعل يمسح الدم ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم**» وأشاع الشيطان أن مُحَمَّداً قد قتل ولحق الغم واليأس ببعض الصحابة، وفر من فر من المسلمين ولحقوا بالمدينة وحاول المشركون جهدهم أن يقتلوا النبي ﷺ ولكن الله عصمه منهم، ثم حصل حوار بين أبي سفيان والمسلمين بعد المعركة، فقال أبو سفيان: «يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني» فقال عمر: «لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» ثم بلغ البلاء مبلغه عندما جاءهم الخبر أن المشركين فكروا في العودة إلى المدينة والقضاء على المسلمين قضاء مبرماً واستئصالهم عن بكرة أبيهم، فخرج الرسول ﷺ واستجاب له أصحابه من بعد ما أصابهم القرح والكلم، ولكن كفى الله شر المشركين وانصرفوا إلى مكة.

وبعد ذلك وقعت سرية أبي سلمة إلى بني أسد ابن خزيمة ففر المشركون واستاق المسلمون أنعامهم إلى المدينة غنيمة.

ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي وقد كان يجمع الناس لغزو المدينة، فقتله عبد الله.

ثم رجع العسر قليلاً فوقعت سرية الرجيع عندما بعث رسول الله ﷺ سرية، وأمر عليهم عاصم بن ثابت حتى إذا كانوا بين مكة وعسفان، تتبعهم مائة رام من هذيل، فانتهوا إليهم وأحاطوا بالصحابة، فقتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل وأسروا ثلاثة، ثم قتلوا واحداً منهم صبراً، ثم باعوا الاثنين وهما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة في مكة، فاشتراهما مشركي قريش، وقتلوهما ثأرا لقتلاهم الذين قتلهم المسلمون.

ثم وقعت وقعة بئر معونة، عندما أرسل الرسول ﷺ إلى نجد سبعين رجلاً من خيار الصحابة عرفوا بالقراء، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل وينفقون مال حطبهم على أهل الصفة، وكان سبب إرسالهم أن بطوناً من بني سليم جاءوا يستمدون الرسول ﷺ على عدو، فأمدهم بهؤلاء السبعين، فلما بلغوا بئر معونة غدر بهم المشركون من رعل وذكوان وعصية فقتلوهم جميعاً إلا كعب بن زيد بن النجار تُرك وبه رمق وعمرو بن أمية الضمري الذي أسروه ثم تركوه، وقد تألم الرسول ﷺ لهاتين الوقعتين بئر معونة والرجيع تألماً شديداً حتى قال أنس – ﷺ – كما رواه البخاري عنه: «ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على سرية ما وجد على السبعين الذين أصيبوا يوم بئر معونة، كانوا يدعون القراء فمكث شهراً يدعو على قتلتهم» وفي رواية: «فما رأيت رسول الله ﷺ حزن حزناً قط أشد منه» فدعا على رعل وذكوان ولحيان وعصية، وفي طريق عودة عمرو بن أمية وجد في الطريق رجلان من بني كلاب فقتلهما ظناً منه أنه ثأر لأصحابه، وقد كان هذان الرجلان معهما عهد مع رسول الله ﷺ ولم يعلم به عمرو، فالتزم النبي ﷺ بأداء ديتهما.

وقع بعد ذلك شيء من اليُسر؛ عندما حدثت غزوة يهود بني النضير بسبب أنهم هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فأجلاهم الرسول ﷺ، وأخذت ديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

ثم حدثت بعدها غزوة ذات الرقاع، واسمها يُنبيك عن الجهد الذي لحق الصحابة وقلة ذات اليد، فتنقبت خفافهم من المشي، فلفوا على أرجلهم الخرق، وذلك أنهم كانوا كل ستة يعتقبون بعيراً فكان الغالب المشي لا الركوب.

وبعدها وقعت غزوة دومة الجندل، فهرب المشركون وغنم المسلمون شيئاً من الأنعام ورجعوا.

على إثرها وقعت غزوة بني المصطلق، فأغار عليهم النبي ﷺ وهم غارون، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنمت أموالهم واستيسر المسلمون.

ثم بلغت الشدة مبلغاً بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، حين تألبت قبائل العرب من قريش وكنانة والأحابيش وغطفان وبني أسد وأشجع وبني مرة وبني سليم، وتحالفوا وتحزبوا في جيش قوامه عشرة آلاف من المشركين ليغزو المدينة ويقضوا على المسلمين، فقام الرسول ﷺ بحفر الخندق لحماية المدينة، وأصابهم في ذلك جوع وجهد ومشقة، حتى إن النبي ﷺ ليربط حجراً على بطنه من شدة الجوع، ثم حاصر المشركون المدينة حصاراً شديداً، وغدر يهود بني قريظة أثناء ذلك وهم في ظهور المسلمين وانضموا إلى ذلك التحالف، فضاق الخناق على المسلمين وكان حالهم كما وصف الله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾ وحاول المشركون اختراق الخندق وانشغل المسلمون بهم انشغالاً لم يقدروا معه على الصلاة إلا بعد خروج وقتها، واستشهد في هذه المناوشات ستة من المسلمين منهم سعد بن معاذ – ﷺ – سيد الأوس واشتد الحصار على المسلمين حتى انجلى بعد بضعة وعشرين يوما فانسحب المشركون، ثم حدث الانفراج واليسر إثر ذلك بسقوط قريظة كلها بيد المسلمين، وقتلهم لمقاتلتهم وغنيمة أموالهم وذراريهم، كما قال تعالى: ﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾.

وبعد ذلك وقعت سرية عبد الله بن عتيك – ﷺ – لاغتيال أبي رافع اليهودي فاغتالوه وانسحبوا.

وبعدها أرسل النبي ﷺ مُحَمَّد بن مسلمة – ﷺ – في سرية إلى القرطاء، فدهمهم على غرة وقتل منهم عشرة وفر الباقون، واستاق الإبل والشاء، وأسروا في طريقهم ثمامة بن أثال الحنفي.

وبعدها بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة – رضي الله عنه – في سرية إلى العيص ليعترض عيراً لقريش أقبلت من الشام، فتمكنوا من أخذها وما فيها، وأسروا أناساً ممن كانوا في العير وقدموا بهم إلى المدينة.

وبعدها سرية علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إلى بني سعد بفدك، فأغاروا عليهم واستاقوا من الإبل والشاء الشيء الكثير، وهربت بنو سعد.

ووقعت بعدها سرية عبد الله بن رواحة إلى اليسير بن رزام اليهودي أمير اليهود بخيبر، فقتله في ثلاثين من أصحابه اليهود.

وبعدها بعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في سرية قبل الساحل ليرصدوا عيراً لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان قدر مزود تمر، يقوتهم كل يوم منه قليلاً قليلا، حتى كان نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، ثم فنيت، فلجأوا إلى أكل الخبط – وهو ورق العضاة – فسميت تلك السرية سرية الخبط، ثم نحروا من إبلهم حتى كادت تفنى، فنهاهم أبو عبيدة عن ذلك، وهذا كله يعطيك انطباعاً عما كان يعيشه المجاهدون في زمن النبي ﷺ أحياناً من قلة ذات اليد والشدة، وبعد مسير نصف شهر انتهوا للساحل، فألقى الله تعالى لهم حوتاً ميتاً من البحر، فأكلوا منه نصف شهر، فصحت أجسامهم، ثم رجعوا.

اتجهت الأمور لليسر بعد صلح الحديبية، ففتحت خيبر، وقتل من اليهود بضعة وتسعون رجلاً وسبيت النساء والذراري، واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً، وتم الصلح على الأرض والنخيل مع اليهود، وصالح النبي ﷺ فدك على النصف منها، ثم توجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى وفتحه وخاف يهود تيماء، فصالحوا رسول الله ﷺ على الجزية.

ثم بعث رسول الله ﷺ أبا بكر في سرية إلى بني فزارة في نجد، فأغار عليهم وقتل من قتل، وتمكن من أسر مجموعة من الذراري.

وبعدها سرية بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك، فتمكن من استياق أنعامهم، ثم إنهم لحقوا به وأصابوا من أصحابه، وهرب بعضهم، وجرح بشير وظنوه قد مات فتركوه، فرجع بعد أن ضمدت جراحه إلى المدينة.

ثم بعث النبي ﷺ بشير بن سعد سرية إلى الجناب إلى جمع من غطفان، فأغار عليهم وأصاب من أنعامهم نعماً كثيراً وأسر رجلين منهم ورجع.

ثم بعد ذلك بعث النبي ﷺ سرية بإمرة الأخرم السلمي في خمسين فارساً إلى بني سليم، فأحدقوا بالمسلمين وقتلوا عامتهم، وأصابوا الأخرم وتركوه جريحاً بين القتلى حتى تحامل، فبلغ المدينة.

وبعدها سرية غالب بن عبد الله إلى الكديد، فشنوا الغارة على الأعداء، واستاقوا النعم ورجعوا.

ثم سرية غالب بن عبد الله إلى بني مرة بفدك، فأغار عليهم وأصابوا منهم نعما وقتلوا منهم ثم رجعوا.

ثم أرسل رسول الله ﷺ كعب بن عمير في سرية من خمسة عشر رجلا إلى قضاعة بذات أطلاح، ففطن لهم العدو وأحاطوا بهم وقتلوا جميع أصحابه إلا رجلا واحدا.

ثم بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في سرية إلى بني عامر، فأغاروا عليهم وأصابوا نعماً كثيراً وشاء ثم رجعوا.

ثم بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى مدين في سرية فأصاب منها سبيا ورجع.

ثم حدثت معركة مؤتة بين جيش المسلمين البالغ ثلاثة آلاف ضد جيش الروم ومن حالفهم من العرب البالغ عددهم مائتي ألف وقتل من المسلمين 12 رجلاً، منهم ثلاثة من خيار الصحابة وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة – رضوان الله عليهم –، ولم يحدث حسم للمعركة لأي من الطرفين.

ثم وقعت سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص، فأغار على قضاعة ووطئ بلاد بلي ودوخها حتى أتى أقصى بلادهم وهرب المشركون منه.

ثم بعث رسول الله ﷺ أبا حدرد في سرية إلى الغابة إلى رجل اسمه قيس بن رفاعة من جشم، فأغار عليهم وتمكن من قتل قيس، وأخذوا ما قدروا عليه من الأموال والأنعام والسبي، ثم رجعوا إلى المدينة.

ثم حدث بعد ذلك النصر العظيم بغزو النبي ﷺ مكة، بجيش قوامه عشرة آلاف، وفتحها ودخول قريش في الإسلام وما أثره ذلك في العرب كافة.

ثم بعدها غزوة حنين ضد هوازن وثقيف، فانهزم المسلمون في بداية المعركة بوابل السهام الذي فاجئهم من قبل العدو، ثم إنهم كروا ورجعوا بثبات النبي ﷺ، فهزم العدو وحصل المسلمون من وراء هذه المعركة غنائم عظيمة.

وبعث رسول الله ﷺ سرية أوطاس في تعقب الفارين فقتلوا منهم مقتلة كبيرة.

ثم بعد ذلك وقعت غزوة الطائف في حصار ثقيف بها، وقتل من المسلمين بها اثنا عشر رجلاً وقتل من المشركين ثلاثة رجال، ثم فك النبي ﷺ عنها الحصار ورجع، فجاءته ثقيف بإعلان إسلامهم.

وبعدها سرية عيينة بن حصن إلى بني العنبر، فسبى منهم ورجع إلى المدينة.

وبعدها سرية قطبة بن عامر إلى ناحية تبالة، فحدثت معركة بينهم وبين المشركين من خثعم، فهزموا المشركين واستاقوا النعم والشاء والسبي ورجعوا إلى المدينة.

وبعد ذلك بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب – ﷺ – في سرية إلى طيء، فشنوا الغارة وهدموا فلس صنم طيء الذي يعبدونه، ورجعوا بالغنائم من السبي والنعم والشاء.

ثم حدث العسر الشديد في غزوة تبوك ضد الروم في جيش العسرة، عندما كانت في صيفٍ شديد مع قلة الزاد والمال والركائب، حتى إن الصحابة كانوا يأكلون نوى التمر ويشربون عليها الماء، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾.

وبعد كل المعارك والغزوات التي خاضها رسول الله ﷺ ضد المشركين تم فتح جزيرة العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ووقع الانفراج على المسلمين، ولكن ما إن مات الرسول ﷺ حتى عاد معظم جزيرة العرب على الكفر وارتدوا عن الإسلام، وعاد من حيث بدأوا، ولم يبق إلا مواضع قليلة ثبتوا على إسلامهم، واشتد على الأمر على من بقي وتألب الناس عليهم، ولكن نصر الله الإسلام بثبات أبي بكر – ﷺ – ومن معه من الصحابة، حتى آبت جزيرة العرب إلى الإسلام مرة أخرى ورجع الانفراج واليسر من جديد.

هذا يحدث في سيرة خير البشر وفي خير القرون وخير الناس وأطهرهم، فكيف بمن جاء بعدهم، فالسُّنة ماضية والدائرة تدور بلا توقف، ومن نظر في التاريخ يجده طافحاً بنماذج كثيرة على مر السنين ومد القرون، حتى في عز الفتوحات الإسلامية وظهور الإسلام يقع تبادل الألم والقرح بين المسلمين والكفار، وتتخلل الهزائم خلال

تلك الفتوحات وتتأرجح الحال بين الشدة والفرج، ولكن كما سبق أن ذكرنا قد يطغى نيل المسلمين في زمن وقد يطغى نيل الكفار في زمن آخر؛ كما هو الحال في الليل والنهار، فالله عز وجل وإن كان قد ضمن الانتصار لعباده المؤمنين في الجملة ولكنه سبحانه لم يضمن الانتصار في كل معركة وصراع بل سنة التداول على خلاف ذلك.

وقد جاء في أوج الفتوحات الإسلامية في زمن عمر كما رواه ابن أبي شيبة عن أسلم مولى عمر قال: "لما أتى أبو عبيدة الشام حضر هو وأصحابه وأصابهم جهد شديد – وفي رواية – أن أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب، يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم. فكتب إليه عمر: سلام، أما بعد فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجاً ولن يغلب عسر يسرين، وكتب إليه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾."

لا تيأســـــن لعســـــرة فوراءهـــــا يســـران وعـــد لـــيس فيـــه خـــلاف
كـــم كربـــة قلـــق الفـــتى لنزولهـــا لله في أعطافهـــــــا ألطـــــــاف

وحتى مع سقوط الأندلس في غرب أوروبا؛ كانت جحافل الإسلام تتوغل في شرقها وتفتح بلدانها واحدة تلو الأخرى حتى وصولهم إلى النمسا وحصارها، ومع ضعف الدولة العباسية كانت شمس الفتوحات الإسلامية تشرق في شبه القارة الهندية معلية راية الإسلام على أنقاض صروح الكفر، وحتى في ظل الظروف الراهنة من تآلب وتكالب الأمم والنظام العالمي على المسلمين في عصرنا، واشتداد سطوة الكفار لا يزال القرح والألم ينتاب الفريقين والنيل والنكاية تدور بين الطرفين، في سلسلة لا انقطاع لها ولا نهاية حتى تضع الحرب أوزارها، وعجلة الجهاد لا زالت تدور ولن تتوقف حتى يقاتل آخر هذه الأمة المسيح الدجال.

ولكن عزاء المسلم في كل هذا أن الله تعالى هو وليه ومولاه وأن الكافرين لا مولى لهم: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾ ومن عزائه أيضاً أن الله تعالى جعل العاقبة النهائية والنصر الذي يحسم المعركة وينهيها لَهُ دون الكافرين: ﴿**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

وعزاؤه أن الله تعالى وعده بالتمكين والعزة والرفعة: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ وأيضاً أن الله تعالى معه ولن يضيع عمله وأجره، وسيجزيه على صبره ومصائبه كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ وقال في محكم تنزيله: ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وعزاؤه أن الله تعالى وعده بالرضا والجنة والمغفرة.

﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ ومن عزائه أيضاً أن الله تعالى جعل لهذا التداور من الحكم والمصالح العظيمة للجهاد وأهله ما لا يكون إلا به؛ كتصفية صفوفهم وتطهير قلوبهم مما سنأتي عليه لوقفة لوحدها، وفي هذا يقول سيد قطب – رحمه الله – في الظلال: "إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم، ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده، وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين، والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور، ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء، وتجعله واقعاً في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء، فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطئ، وميزان لا يظلم، والرخاء في هذا كالشدة.

وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل، والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى الله في الحالين، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة – وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية – فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب – وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة – لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة، ولتزيد طاعة لله، وتوكلاً عليه، والتصاقاً بركنه، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين" انتهى.

وهذا كله كاف وزيادة في مواساة وعزاء المؤمن الصادق تجاه تداور وتداول الزمان بين أهل الحق وأهل الباطل.

لا تكـــترث بالليـــالي إنهـــا دول لا يســتمر لهـا حــزن ولا جــذل
ولا تضـــق بالقضـــايا في تقلبهـــا في طـي كـل شـديد خـيرة جلـل
إذا اعتبرت صروف الدهر مرسلة أيقنـــت أن القضـــايا كلهـــا نقـــل

***

الوقفة الخامسة: فقه العلو

إن معاني القوة والضعف، والعلو والسفل، والرفعة والدنو، والعزة والذلة، والنصر والهزيمة، لابد أن تطرأ كثيراً في الصراع الكوني ما بين أهل الحق وأهل الباطل، وتظهر ظهوراً جلياً على خارطته، بل عليها تدور رحى الحرب ما بين الفريقين، فلها تحشد الجيوش وتقام المعارك، وتسفك الدماء وتنفق الأموال، وتستنزف الجهود وتستثمر الطاقات، فالمقصد الأعلى من قتال أهل الحق هي أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا**﴾ وقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه، ومقصد أهل الباطل هو العلو في الأرض مع الإفساد فيها وأن تكون كلمة الكفر هي العليا، وعليها بنى قدوة رؤوس الكفر ورأس الطغاة والجبابرة فرعون قاعدته، فقال الله تعالى عنه: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ وقال تعالى عنه: ﴿**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ وقال أيضاً عنه وقومه: ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**﴾ ووصل به الحال أن قال عن نفسه: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿**لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ وقال تعالى واصفاً أهل الحق بنقيض صفات أهل الباطل: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا**﴾ بل إن مبتدأ الصراع بين الحق والباطل كان من هذه الجهة واعتقاد العلو والخيرية على الآخر، عندما قال رأس الباطل إبليس لما أمر بالسجود لآدم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾ وعنه قال الله تعالى: ﴿**أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾ فمعاني الاستعلاء والظفر بالعلو أساسية في الصراعات وفي هذا يقول الله تعالى لموسى – عليه الصلاة والسلام – حين التقى بسحرة فرعون: ﴿**قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾ ويقول الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ويقول آخر:

نحن الذين إذا عَلوا لم يفخروا يوم اللقا وإذا عُلوا لم يضجروا

ولهذا جاءت النصوص الشرعية توضح فقه هذه المعاني، لأن فقهها ضروري بالنسبة لأهل الحق، حتى يستمروا في مقارعة الباطل وأهله، ولا يتأثروا بالمستجدات على الواقع الميداني ومجريات سير المعركة، فكم فتَّ جهل تلك المعاني في عضد الجهاد، فكم من واهن في حركته، وآخر متعثر في الطريق، وثالث منتكس على أعقابه، دفعهم غياب هذا الفقه أو عدم استشعاره؛ إلى التأثر السلبي بالأحداث من حولهم، بدءاً من الحزن ثم الضعف ثم اليأس وانتهاء بالانتكاس والرجوع عن طريق الجهاد، بل وربما عن الدين والعياذ بالله.

ولئن كان للعلو والعزة والرفعة والتفوق ما بين أهل الحق وأهل الباطل مقاييس تقاس بها، فهي تختلف من مقياس لآخر، فمقياس ذاك عند أهل الباطل ليست كما هي عند أهل الحق وعند الله تعالى، فأهل الباطل من الكفرة والمنافقين مقياسهم في العلو هو التفوق المادي والعلو الميداني النسبي المؤقت، الذي لم يخوله الله تعالى دائماً لفئةً دون أخرى، بل جعله متداولاً بين الناس يوم لفئة وآخر لأخرى، كما قال تعالى بعد غزوة أحد وما حصل من انكسار المسلمين يومئذ: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ وقال أبو سفيان حين سأله هرقل عن الحرب بينهم وبين الرسول ﷺ: «الحرب سجال يدال علينا وندال عليه» فلا يحتوي علوهم سمو الدين ولا شرف الأنفس، ولا رفعة الأخلاق ولا قوة الحجة، ولا علو العاقبة ولا حظ الآخرة، فهو قياس ضيق محصور، وناقص مقصور، وهو مع كونه قاصراً فإنه مؤقت ولا يدوم، ولم يدم لهم من حين بعث الرسول ﷺ، فما زالت الحرب سجال والأيام دول، إن مس أهل الحق قرح فقد مس القوم قرح مثله، وإن كان أهل الحق يألمون فإن أهل الباطل يألمون كما يألم أهل الحق.

وأما العلو عند أهل الحق فهو أوسع من هذا المعنى وأجل وأرفع، فهو يشتمل على معانٍ سامية كثيرة يتضمنها لفظ العلو ودلت عليها النصوص، فلئن نال أهل الباطل شيئاً من التفوق المادي والعلو الميداني المؤقت، فإن أهل الحق قد حازوا جميع أنواع العلو ونافسوا أهل الباطل في العلو الميداني، فلا يقتصر علوهم فقط على العلو الميداني، بل هو يحوي أنواعاً من العلو في مجالات شتى لا يقوم لها العلو الميداني ولا يخل فقدانه في توفر حقيقته، ومن هذه الأنواع:

1.العلو المعنوي الإيماني:

فأهل الحق بإيمانهم أعلى من أهل الباطل مطلقا، فتضمنهم للإيمان في قلوبهم يجعلهم عالين ذاتياً على أهل الباطل، وإن كانوا خالين من أي تفوق مادي أو تميز ظاهري على الأرض، وإن كان أهل الباطل قد تفوقوا عليهم في الماديات والقوة الميدانية وكان لهم الغلبة في بعض الأوقات كما قال تعالى: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾.

فلأهل الحق العزة والرفعة على الكفار بإيمانهم ولو كانوا مجردين من أسباب الرفعة الدنيوية، كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ فعلى المؤمن أن يستشعر هذه العزة وهذا العلو على الكفار، وأن يأخذ بآثار هذا الاستشعار ويظهرها على أرض الواقع، كما قال تعالى مادحاً صنفاً من عباده: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ فيكون عزيز النفس رفيع الجانب على الكفار، ويعاملهم على وجه الصغار، فلا يرفع جنابهم ولا يذل لهم ولا يخنع، ولا يراهم أعلى منه ولا يكون تابعاً لهم أو يرضى أن يترأسوه.

وتبرز مظاهر هذا الاستعلاء جلياً في النصوص الشرعية، فقد جاء النهي والتشديد عن التشبه بأهل الباطل مع الأمر بمخالفتهم، وكذا جاء الأمر عند لقائهم في الطريق بأن يضطرهم أهل الحق إلى أضيقه، وحرم زواج الكافر من المسلمة مطلقاً دون العكس، وكذا لا يقتل مسلم بكافر وغير ذلك من الأمثلة.

والإسلام عزيز وعلي بنفسه، فكل من انتسب إليه فله نصيب من تلك العزة وذاك العلو، كما أن الكفر ذليل بنفسه، فكل من انتسب إليه فله من تلك الذلة كفل، وفي هذا المعنى ما روى الحاكم في مستدركه عن طارق بن شهاب قال: «لما قدم عمر الشام، لقيه الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذا؟ فقال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نبتغي العزة بغيره» وفي رواية: «أنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله» وروى الطحاوي بإسناد صحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه» وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا يصح، وفي الطرف المقابل يقول الله

تعالى عن أهل الباطل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ**﴾ وقد أتى بصيغة التفضيل مبالغة في الذل، وصح أن النبي ﷺ قال: «**وجعل الذل والصغار على من خالف أمري**» رواه الإمام أحمد.

ولهذا استنبط بعضهم استعلاء الحق وأهله من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ فجاء الظرف في الهدى ظرف استعلاء، إذ الهدى مظنة استعلاء صاحبه ونزع هذا الظرف في الضلال.

فأهل الحق يستشعرون معاني هذا الاستعلاء الذي خصه الله تعالى بدينه دون سائر الأديان الأخرى، وخوله الله تعالى لهم دون سائر أهل الأرض، بل وتمتلئ بها نفوس حتى تفيض عزة واستعلاء على أهل الباطل وإن كانوا لا يملكون شيئاً من مقومات الغلبة، ومن استشعر هذا المعنى هان عليه كل نصر وعلو وتفوق يحققه أهل الباطل، وحقر عنده كل انكسار وتراجع يكون على أهل الحق، لأنه ما زال يملك العلو الحقيقي الذي لا يغيب ولا يتخلف ولا يمكن أن يسلب إلا بسلب سببه وهو الإيمان.

2.علو الأخلاق:

فالإسلام قد فاق سائر الأديان في الحض على الأخلاق الكريمة والتمسك بها، فالنصوص الشرعية التي ترشد إلى ذلك كثيرة جداً، بل يكفي أن النبي ﷺ قال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» رواه الإمام أحمد، والسمو الحقيقي هو السمو في الخلق:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أثنى الله تعالى على أمة الإسلام بكونها خير الأمم وأعلاها، كما قال تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ أي: عدلاً خياراً، وثبت عن النبي ﷺ قال: «**وجعلت أمتي خير الأمم**» رواه أحمد، ومن أولى ما يدخل في هذه الخيرية خيرية الأخلاق.

فأهل الحق تحكمهم مبادئ الأخلاق الكريمة التي جاءت بها الشريعة، وتضبطهم الأعراف والمروءات، فلا يتطلعون لسيء الأخلاق ولو رأوا أنها أسهل طريقاً وأسرع سبيلاً لنيل المراد، وأما أهل الباطل فماذا يرتجى ممن

كان وليه الشيطان، فالمصالح والماديات تحكمهم، والمنافع والشهوات تسيرهم، فأخلاقهم منوطة بها وعليها تبنى المبادئ.

3.علو الحجة:

فلأهل الحق الحجة الدامغة على الباطل وأهله بقوة الحق الذي معهم، كما قال تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

وأهل الباطل يحاجون أهل الحق بباطلهم ليدحضوا به الحق، ولكن حجتهم هي الداحضة والباطلة كما قال تعالى: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾.

4.علو الولي:

فيكفي في علو أهل الحق كون "العلي، الأعلى، القوي، الجبار" ﷻ معهم، وهو وليهم ومولاهم وناصرهم ومعينهم ومؤيدهم على عدوهم، وأنه يمدهم بجنوده من سائر خلقه من الملائكة وغيرهم، وكفى بربك هادياً ونصيراً، وبالناصر تقاس القوة والعزة والمنعة، قال تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾ ومن نصره الله تعالى فلا غالب له، كما قال تعالى: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾ وهو رب العزة وله العزة جميعاً ومنه تطلب، كما قال تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ .

وقد قال أبو سفيان بعد معركة أحد مخاطباً المسلمين حين انكسروا، مستدلاً بعلوهم الميداني في تلك المعركة على علو إلهه هبل: «يوم بيوم بدر والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم

أخذ يرتجز: أعل هبل أعل هبل»، قال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا له**» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**» قال: «إن لنا العزى ولا عزى لكم» فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا له**» قال قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «**قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**» رواه البخاري.

وأما أهل الباطل فوليهم الشيطان الذي قال الله تعالى عن ولايته: ﴿**وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ وسيأتي مزيد تفصيل في الكلام إن شاء الله تعالى في الكلام على الولاية في وقفة لوحدها.

5.علو العاقبة:

فالحرب الميدانية بين أهل الحق وأهل الباطل سجال ودول، تارة لهم وتارة عليهم، ولكن العاقبة والخاتمة والمآل هي لأهل الحق على أهل الباطل، وأهل الباطل أمرهم مدحور وممحوق في العاقبة، كما قال تعالى واصفاً صراع موسى – عليه الصلاة والسلام – وقومه مع فرعون وقومه وادعاء قوم فرعون العلو والفوقية الميدانية المؤقتة ورد موسى بعلو العاقبة: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ أي: في العاقبة، وقال هرقل لأبي سفيان لما قال له إن الحرب بينهم وبين النبي ﷺ سجال: قال: «**وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة**» متفق عليه، وعن تميم الداري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك**

الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر» رواه أحمد، والأمور بخواتيمها، وعلى النهايات تبنى النتائج والأحكام.

وأما عاقبة أهل الباطل فهي الهزيمة والخسران، كما قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا**﴾ وقال: ﴿**جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾.

6.علو الآخرة:

فعلى الآخرة تدار الأحكام، وعليها المعول وهي النهاية والختام، فما الدنيا إلا دار ابتلاء ومعبر وعما قليل ستنقضي، والعلو والاستفال الحقيقي والمطلق إنما هو في الآخرة، فمهما بلغ أهل الحق من البلاء في الدنيا، فإنه لا أثر له ولا يقوم لما ينتظرهم من النعيم والعلو والإكرام في درجات الجنة العالية فوق السماء السابعة، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ وقال: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**﴾ ولهم حسن العاقبة في الدنيا وأيضاً يوم القيامة في الجنة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ وقال تعالى فيهم: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**﴾ ومهما بلغ أهل الباطل من الغطرسة والعتو والعلو والنعيم واللذات في الدنيا، فإنه لا أثر له ولا يقوم لما ينتظرهم من العذاب والذل والهوان في دركات الجحيم السفلى، قال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ ولهم سوء العاقبة يوم القيامة عند الله تعالى، كما قال تعالى عنهم: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ وقال تعالى عن عاقبة الفريقين: ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ**﴾ وعن عمر بن الخطاب – ﷺ –: أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو على حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف،

وإن عند رجليه قرظاً مصبوباً، وعند رأسه أهبٌ معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه قال: فبكيت، فقال: «**ما يبكيك**» فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله! فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**» متفق عليه.

ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة لما سقى منها كافراً شربة ماء، فضلاً على أن ينيلهم العلو فيها، ولكنها أقل من جناح البعوضة بكثير فلا ضير أن يتمتعوا فيها قليلا، ومن استشعر هذا المعنى وقام بقلبه لم يأبه بأي علو أو تفوق يناله أهل الباطل فيها ولو كان كبيرا.

وبهذا يتبين أن أهل الحق جمعوا جميع معاني العلو والرفعة، وأن أهل الباطل جمعوا جميع معاني السفل والدناءة.

وأنواع العلو هذه لا تتخلف عن أهل الحق مطلقاً، ما داموا ثابتين على إيمانهم ودينهم ومتمسكين بأخلاقهم، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة ولو حصل لهم التقهقر والتراجع والانكسار في الميدان، وتغلب أهل الباطل على الملك والسلطان، وتفوقوا عليهم مادياً وتقنياً وكانت لهم الصولة والجولة، فإن أهل الحق هم الأعلون دائماً، كما قال تعالى في كتابه بعد غزوة أحد وبعدما فقد المسلمون في تلك الغزوة العلو الميداني وكانت الدائرة عليهم: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فأثبت لهم حقيقة العلو بل وبصيغة الأفضلية، ودعاهم إلى الأخذ بمقتضى ذلك العلو من عدم الوهن وعدم الحزن على فقدهم ذاك العلو الميداني؛ لأنهم حقيقة هم الأعلون على أهل الباطل بأنواع العلو الأخرى، ومثل هذا ما جاء عن النبي ﷺ في وصف الطائفة المنصورة من أمته فقال: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» رواه مسلم عن جابر – رضي الله عنه –، فأثبت لهم الظهور والعلو إلى يوم القيامة، وبفقه أنواع العلو هذه يتضح فهم قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾ مع ثبوت العلو الميداني لهم أحياناً، ومن قامت بقلبه هذه الأنواع وعظم يقينه بها رسخت قدمه في طريق الحق ولم تحركه القلاقل، أو تزعزعه الاضطرابات والزلازل، أو تقتلعه الأعاصير والنوازل بالمستجدات والحوادث الأرضية، ولم يأبه بها أو تؤثر عليه، فضلاً عن أن تجعله ينكص على عقبيه.

وقد نهى الشارع عن التأثر السلبي بالأحداث الميدانية من حول أهل الحق، ولو بأدنى ما يكون من التأثر السلبي وهو الحزن، ما دام أن أهل الحق لهم العلو المطلق في باقي الجوانب على أهل الباطل، فكيف بما هو

أعلى من الحزن، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ وذلك لأن هذه الأحداث وإن كانت سلبية لأهل الحق؛ فإنها تغرق في بحر علوهم فلا يبقى لها أدنى أثر.

ولو تأملنا قليلا لوجدنا أن وصف العلو جاء في كتاب الله في حق أهل الحق بصيغة التفضيل كما قال تعالى: ﴿**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ**﴾ ولم يقل وأنتم العالين وقال تعالى في حق موسى: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى**﴾ وفي الطرف المقابل لم يأت ذاك وصف التفضيل في حق أهل الباطل، كما في قوله تعالى في فرعون: ﴿**وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**﴾ وهذا يدلل على ما سبق من أن أهل الحق لهم العلو المطلق على أهل الباطل، ولا يضير فقد العلو الميداني أحياناً في بقاء وصف العلو المطلق لهم.

وأخيراً فينبغي أن يكون لسان حال المؤمن من أهل الحق كما قال الشاعر:

فليطر معشر ويعلو فإني ... لا أراهم إلا بأسفل قاب
لا أعد العلو منهم علوا ... بل طفوا يمين غير كذاب
جيف أنتنت فأضحت على اللجْ ... جَة والدر تحتها في حجاب
وغثاء علا عبابا من اليمْ ... مِ وغاص المرجان تحت العباب
ورجال تغلبوا بزمان ... أنا فيه وفيهم ذو اغتراب
غلبوني به على كل حظ ... غير حظ يفوت كل اغتصاب
إنني مؤمن وإني أخو الحقْ ... قِ عليم بفرعه والنصاب
قلت إن تغلبوا بغالب مغلو ... ب فحسبي بغالب الغلاب

***

الوقفة السادسة: الحزن

فإن الانسان تتأثر نفسه إيجاباً في الواقع المعنوي بالفرح والسرور ونحوه إذا ظفر بما يحب ويهوى في الواقع الحسي، وفي المقابل – وعلى العكس من ذلك – فإن نفسه تتأثر سلباً في الواقع المعنوي بالحزن والأسى والغم ونحوه إذا حصل له ما يكره من المصائب والجراح، ولما كان الجهاد مليء بالمصائب والجراح كان لابد من الكلام عما يصاحبها وينتج عنها من الأحزان والكآبة.

فهذا التأثر السلبي بالمصيبة بالحزن والأسى والكآبة ونحوه يحصل جبلة للبشر، فلا يؤاخذ عليه العبد ولا يلام ما دام أنه لم يحمله على أمر منهي عنه كاليأس والقنوط والوهن والإحباط ونحوه، فقد قال الله تعالى عن يعقوب – عليه السلام –: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ وجاء عن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم أنه قال: «**إنَّ العيْنَ تَدْمَعُ، والقلبَ يَحزنُ، ولا نقولُ إلا ما يَرضى ربُّنا، وإنا بفِراقِكَ يا إبراهيمُ لمحزُونونَ**» متفق عليه.

وقال: «**ألاَ تَسمَعونَ؟ إن الله لا يُعذِّبُ بدمع العَينِ، ولا بحُزنِ القلبِ، ولكنْ يُعذِّبُ بهذا – وأشارَ إلى لسانهِ – أو يَرحمُ**» متفق عليه.

ولكون النبي ﷺ بشر كسائر البشر، فإنه يلحقه هذا الحزن الجبلي عندما يصاب المجاهدون في زمنه، فقد روى أنس بن مالك – رضي الله عنه – في حادثة بئر معونة ومقتل القراء من الصحابة قال: «قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً حين قتل القراء، فما رأيت رسول الله ﷺ حزن حزناً قط أشد منه» رواه البخاري.

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «لما جاء النبي ﷺ قتل ابن حارثة، وجعفر، وابن رواحة جلس يعرف فيه الحزن» متفق عليه.

وهذا التأثر السلبي الذي يكون لفوت محبوب أو حصول مكروه؛ لا يرجع على العبد بما ينفعه من أمر الدنيا والآخرة، من إعادة مفقود أو إيجاد معدوم أو إيفاد غائب أو الظفر بمحبوب أو رفع مكروه ونحو ذلك، ولهذا لم يأمر به الشارع.

لعمرك ما الأحزان تنفع ربها فيجمل بالمحزون أن يتجلدا

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: "وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ، بل قد نهى عنه في مواضع؛ وإن تعلق أمر الدين به، وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ولا فائدة فيه، ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب" انتهى كلامه باختصار.

بل إن الحزن والأسى قد يؤثر على العبد سلباً في حركته في الحياة إذا لم يعرف كيف يتعامل معه، بإدخال الضعف إليه، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في كتاب الله تنهى النبي ﷺ، وتنهى المؤمنين عن الحزن والأسى والابتئاس؛ ووقوع الحسرة في القلب على ما يصدر من المكروه من قبل أهل الباطل، سواءً أكان كفراً أو جرماً أو كيداً أو نكايةً أو أذى، أو الحزن على ما أعطي أهل الباطل وفتح لهم من متاع الدنيا وزهرتها؛ معللاً هذا النهي بعلةٍ تناسب إجلاء هذا الحزن من القلب.

فأما الحزن على ما يصدر من الكفر، والمسارعة فيه من قبل أهل الباطل؛ بنشره ودعمه والدفاع عنه والتضحية في سبيله، فقال تعالى: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾

وقال: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾.

فهم لا يستحقون هذا الحزن لكونهم ليسوا أهلا لنعمة الإيمان، وكذلك لن يضروا دين الله تعالى ولا رسوله ﷺ، وفي النهاية سيصيرون إلى الله تعالى فيجازيهم الله تعالى على كفرهم يوم القيامة.

وأما الحزن من مكر أهل الباطل وكيدهم فقد قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)**﴾ وقال: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾.

وقال أيضاً في هجرة النبي ﷺ عندما بحث عنه الكفار وترصدوا له: ﴿**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾.

فمن كان الله تعالى معه فإنه حافظه فلا يضيره كيد الكفار، وسيصرف الله عنه ويقيه سيئات مكرهم، ثم تكون عاقبة أهل الباطل والإجرام الهلاك والخسران.

وأما الحزن مما يناله أهل الباطل من أهل الحق، فقد قال تعالى في أعقاب ما حدث في غزوة أحد من لحاق الهزيمة والجراح بالمسلمين: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فمن له العلو المطلق؛ فإنه لا ينبغي له أن يحزن من علو مؤقت يحرزه الكفار.

وأما الحزن مما يصدر من لسان أهل الباطل من السوء؛ من كذب وافتراء وتكذيب واجتراء وسب وشتم وأذى، فقد قال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾.

وقال مواسياً رسوله ﷺ عن الحزن الذي ينتابه من تكذيب المشركين بألسنتهم: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ فذكر أنهم لا يكذبونه في قرارة قلوبهم ويعلمون صدقه فيما يقول؛ ولكنهم يجحدون بألسنتهم.

فإذا كانت العزة ملك لله تعالى يهبها لمن يشاء عباده، فلا يحزن مما يخرج من المشركين من الأذية والتطاول التي قد يتوهم منها الذل، والله تعالى مع ذلك محص أقوالهم وأسرارهم وسيجازيهم عليها.

وأما الحزن على ما أُعطي أهل الباطل من متاع الدنيا، فقال تعالى: ﴿**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ يقول ابن جرير في تفسيره: "يقول تعالى ذكره لنبيه مُحَمَّد ﷺ: لا تتمنينّ يا مُحَمَّد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابًا غليظًا، ﴿**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ يقول: ولا تحزن على ما مُتعوا به فعجّل لهم. فإن لك في الآخرة ما هو خير منه" انتهى.

ولئلا يحزن العبد على المصائب يخبر الله تعالى أنه ما من مصيبة تحدث إلا وهي مكتوبة من قبل أن يبرأ الله تعالى الخليقة، فما أصاب العبد لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، فيقول تعالى: ﴿**ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ**﴾.

ولما قد يحدثه الحزن من أثر في قلب العبد؛ يحرص الشيطان بكيده الضعيف على إدخال الحزن على أهل الحق قدر إمكانه، كما قال تعالى عما يحصل من حزن المؤمنين عندما يرون المنافقين يناجي بعضهم بعضاً: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾.

وروى أبو هريرة – ﷺ – عن النبي ﷺ قال: «**الرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه**» رواه مسلم.

ولهذا جميعا كان النبي ﷺ يتعوذ من الهم والحزن كثيراً، فجاء عن أنس بن مالك – ﷺ – قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، إذا نزل، فكنت أسمعه كثيراً يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال**» رواه البخاري.

وأنقل هنا باختصار كلاماً نفيساً لابن القيم – رحمه الله – عن الحزن فيقول في كتابه طريق الهجرتين: "اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأْمر الله به في موضع

قط ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثواباً، بل نهى عنه في غير موضع كقوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأَل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**».

فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان: فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم... والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه، وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. وأما أن يكون عبادة مأْموراً بتحصيلها وطلبها فلا، ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات. ولكن يحمد في الحزن: سببه، ومصدره، ولازمه، لا ذاته، فإن المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره خدمة ربه وعبوديته، وأما أن يحزن على تورّطه في مخالفته ومعصيه وضياع أيامه وأوقاته.

وهذا يدل على صحة الإيمان في قلبه وعلى حياته، حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه، ولو كان قلبه ميتاً لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم، فما لجرح بميت إيلام، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى، ولكن الحزن لا يجدي عليه فإنه يضعفه كما تقدم.

بل الذي ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر، ويبذل جهده، وهذا نظير من انقطع عن رفقته في السفر، فجلس في الطريق حزيناً كئيباً يشهد انقطاعه وسبقَ رفقته، فقعودُه لا يجدي شيئًا. بل إذا عرف الطريق فالأولى له أن ينهض، ويجدّ في السير ويحدث نفسه باللحاق بالقوم، وكلما فتر وحزن حدث نفسه باللحاق برفقته، ووعدها – إن صبرت – أن تلحق بهم، ويزول عنها وحشة الانقطاع." انتهى كلامه.

وقد ذكر ابن القيم في المدارج أن الحزن لم يأت في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً، فالمنهي قد سبق الكلام عليه، وأما المنفي فقال – رحمه الله –: "والمنفي كقوله: ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾. وذكر أن سر ذلك أن الحزن مُوقِّفٌ غير مُسيِّرٍ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه".

وقال: "وأما قوله تعالى: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ . فلم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه**» فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد يكفر بها من سيئاته، لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه.

وأما حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ إنه كان متواصل الأحزان فحديث لا يثبت، وفي إسناده من لا يعرف.

وكيف يكون متواصل الأحزان، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها، ونهاه عن الحزن على الكفار، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فمن أين يأتيه الحزن؟!

بل كان دائم البشر، ضحوك السن، كما في صفته «الضحوك القتال» صلوات الله وسلامه عليه" انتهى كلامه.

ومن رحمة الله تعالى وولايته لعباده المؤمنين؛ أنه تعالى يسليهم ويشغلهم عن الحزن وقت المصيبة ويخفف عنهم أثرها بألطاف تدبيره، كما جاء في قوله تعالى في أحداث غزوة أحد: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

روى ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿**غَمًّا بِغَمٍّ**﴾ قال: «الغم الأول الجراح والقتل، والغم الآخر حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون من الغنيمة» وذلك حين يقول: ﴿**لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ**﴾ أي: أن الله تعالى بعث الغم الآخر وهو خبر قتل النبي ﷺ – والذي ليس بصحيح على الحقيقة – لكي يرفع بذلك عنهم حزنان لحق بهم، الحزن الأول فوات النصر والغنيمة، والحزن الثاني لحوق القتل والهزيمة، حتى إذا عاد خبر قتل النبي صلى الله عليه وسلم كذباً وأنه ما زال حياً، سيفرح المؤمنون بذلك فرحاً آخر، بعدما نسوا الحزنان، وسيعدون ما فقدوه حقيراً بجانب ما أكرموا به من كون النبي ﷺ باق على قيد الحياة.

ثم بعد هذا قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ**﴾ وهذا كله لتخفيف الغم والحزن الذي لحق بالمسلمين يوم أحد.

ومن مواساة الله تعالى لنبيه ﷺ ما جاء عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم** " قال: " **فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا مُحَمَّد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** " فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**» متفق عليه.

ولما عقد النبي ﷺ صلح الحديبية، وأصاب الصحابة الحزن الشديد لشروط الصلح ولكونهم لم تتح لهم فرصة زيارة المسجد الحرام والاعتمار، أنزل الله تعالى لهم من الآيات ما يواسيهم ويسليهم عما فاتهم، فعن أنس بن مالك قال: «لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطو الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية فقال:

«**لقد أنزلت آية هي أحب إلي من الدنيا جميعا**» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزلت: ﴿**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾» رواه الامام احمد.

فعلى المجاهد في سبيل الله أن يطرد الحزن والأسى عن قلبه على ما يصيبه من المصائب، ويسلي النفس بما سلى الله تعالى عباده في كتابه بأن العزة لله جميعاً وهو وليه ومولاه، وأن أولياؤه هم الأعلون وأن رحى الجراح والقرح تدور بين الفريقين وغير ذلك مما سيذكر في هذه الوقفات.

ومـــع الأيام تلتـــئم الجـــراح وبعـــد الليـــل ينـــبلج الصـــباح
ولا تحـــزن لحادثـــة تجلـــت فـــإن الحـــزن يعقبـــه انشـــراح

***

الوقفة السابعة: الوهن

طريق الجهاد يتميز بثلاثة أمور لا تنفك عنه، أنه طريق مليء بالمشاق والآلام، والثاني أنه طريق طويل بعيد الغور، والثالث أنه طريق صعب مليء بالعقبات والعراقيل، فهو من اسمه يحتاج إلى جهد ومجاهدة لإدراك أغواره وتحمل أعبائه، وهذا كله يحتاج إلى صبر ومصابرة وعزيمة صارمة وإرادة صلبة وهمة عالية: تحمل على عاتقها أثقال الطريق، وتتكسر على صخرها أقسى المصائب وصنوف الابتلاءات، وتحرق في دربها أي هاتف وهن ينادي أو داع دعة وكسل يهتف بها، مذللة للصعاب ومصغرة للعظائم، وقاطعة لمفاوز الهلاك، ومقتحمة لعقبات اليأس، تتربص إحدى الحسنيين:

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا

فعماد الثبات على هذا الطريق بعد عون الله تعالى؛ هو الصبر والمصابرة، وقوة الإرادة والمثابرة.

فأما الصبر والمصابرة فقد أمر الله تعالى بهما في كتابه في سورة آل عمران التي جاءت لعلاج جراح غزوة أحد، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

والفرق بين الصبر والمصابرة، أن الصبر هو حبس النفس على المكاره على سبيل العموم، وهذا حال الصابر في نفسه، وأما المصابرة فهي أتت على وزن مفاعلة؛ التي تدل على تبادل الفعل بين طرفين أو مقابلة الفعل بآخر مثله؛ كالمضاربة والمقاتلة، ومعنى ذلك أن تصبر أمام صابر آخر، فتصبر للعدو كما هو يصبر لك وتنافسه وتغالبه في هذا الصبر، بأن تكون أكثر صبراً منه حتى تحرز النصر بذلك، أي: هو مقاومة الخصم في ميدان الصبر كما ذكره ابن القيم، فهو بذلك أشق من عموم الصبر وأعلى منه، فقد يصبر العبد ولا يصابر.

فهذا الأمر الإلهي يبين لأهل الحق أن أهل الباطل صابرون على باطلهم ومصابرون لكم مع كونهم على الباطل، فأنتم يا أهل الحق أولى بالصبر والمصابرة والإصرار والصمود، وأن لا تغلبكم في الصبر أي أمة من الأمم، فإن النتيجة والعاقبة يحرزها من صبر حتى النهاية ولا يكون ذلك إلا لواحد من الطرفين، كما قال زفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام:

سَـقَيْنَاهُمُ كَأْسًـا سَـقَوْنَا بِمِثْلِهَـا وَلَكِـنَّهُمْ كَـانُوا عَلَـى الْمَـوْتِ أَصْـبَرَا

قال البقاعي في تناسب الأيات والسور: "﴿**وَصَابِرُوا**﴾ أي: أوجدوا المصابرة للأعداء من الكفار والمنافقين وسائر العصاة، فلا يكونن على باطلهم أصبر منكم على حقكم" انتهى.

ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**النصر مع الصبر**» رواه أحمد، وفي المقولة المشهورة "النصر صبر ساعة" فالانتصار في المعركة مرهون بالصبر والمصابرة فمن غلب فيهما انتصر.

وتنقضى الحرب محموداً عواقبها للصـابرين، وحـظ الهـارب النـدم

وأما الإرادة والعزيمة والمثابرة، فالله عز وجل كرر أمره في كتابه أن تؤخذ شرائعه وجميع أوامره ويعمل بها بعزم وقوة وجد واجتهاد ونشاط ومواظبة كما قال تعالى: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾ وقال تعالى: ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾ وقال تعالى: ﴿**خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾.

وأوكد ما يدخل فيه هذا الأمر والحض هو الجهاد؛ فإنه ذروة سنام الإسلام، ولا يبلغ العبد هذه الذروة وهذا العلو إلا بإرادة قوية وهمة علية ونشاط دائب، كما أن الجبال الشواهق لا يصعدها المتهيب والمتردد وفاقد العزم، وأما الثبات على القمة والبقاء على الذروة مع هبوب عواصف الابتلاءات والشدائد، وانهمار أمطار الرزايا والمحن، وتزلزل الأرض بالحروب والكروب، فهذا يحتاج ذروة سنام الإرادة وأقصى غاية العزيمة؛ حتى تنجلي إما بنصر أو شهادة، عزيمة تحطم الصخر وتَفل الحديد ولا تُفل، وأما صاحب الارادة الضعيفة والعزيمة المهلهلة فإنه يصعد قليلاً؛ ثم تُثل عزيمته أدنى صعوبة أو أقرب نصب فيعود، أو يمكنه الوصول إلى القمة ولكن تجترف إرادته المتضعضعة تلك أمواج البلاء والامتحانات، وتسقطه زلازل الآلام والقروح، فيبدأ بتقديم التنازلات والتخلي عن الثوابت، ويكون الذل والاستكانة هو منطق العلاقة مع الأعداء.

إنه لا يمكن أبداً المضي إلى الجهاد والدخول من بوابته، والنهوض بالنفس واللحاق بركب المجاهدين وتطليق الدنيا؛ إلا بدافع ذاتي جياش يدفع النفس نحو هذا الأمر العظيم، وهذا الدافع هو الإرادة الماضية والعزيمة القاطعة، كما أنه لا يمكن أبدا الثبات على هذا الطريق رغم شدائده والإصرار عليه على مصاعبه؛ إلا مع

وجود تلك الإرادة والعزيمة، كما أنه على قدر تلك الإرادة والعزيمة تكون الهمة والنشاط والحركة ومن ثم تكون النتائج بإذن الله:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتى العزائمُ وتأتِي علـى قـدرِ الكـرامِ المكـارمُ
وتعظـم في عـين الصـغير صـغارها وتصـغر في عـين العظـيم العظـائم

فعمدة الحركة والسعي ومبدؤهما هو الإرادة، فبدون إرادة؛ لا حركة ولا سعي ولا جد ولا اجتهاد، وهذه الإرادة على درجات تتفاوت قوةً وضعفاً، ولمنزلة قوة الإرادة والعزيمة في الجهاد؛ جاءت النصوص في الكتاب والسنة مبينة أهميتها بالنسبة للجهاد على صور شتى، فقد حث الله تعالى عباده المجاهدين في جهادهم الكفار؛ بالجد والاجتهاد والحركة والنشاط، الذي يتضمن ولابد قوة الإرادة والعزم أو القوة الداخلية، فقال تعالى: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ**﴾ وجاء عن النبي ﷺ: «**من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة طار عليه**» رواه مسلم، والتعبير بالطيران من أبلغ ما يكون للتعبير عن قوة العزم والنشاط والسرعة في تلبية النداء.

وفي مقابل هذا جاءت النصوص تذكر من عزيمة الكفار وجدهم في صراعهم مع أهل الحق كما قال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ وقال أيضاً: ﴿**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.

وفي مقابل ضرورة إيجاد الإرادة القوية جاء نهي المجاهدين عن الوهن وهو الضعف في ثلاث آيات من كتابه سبحانه، الأولى بعد غزوة أحد ومصاب المسلمين بها، فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ فنهى الله تعالى الصحابة عن أن يصيبهم الوهن والضعف؛ بسبب ما أصابهم من تبعات

جهاد المشركين وتداعيات الصراع بينهم وبين أهل الباطل، وأول ما يدخل في هذا الوهن المذموم هو الوهن والضعف النفسي والمعنوي في العزيمة والإرادة، لأنه يترتب عليها الوهن الحسي في العمل وفي النتائج على الواقع ولابد، فإن الوهن إذا تطرق إلى الإرادة خارت العزيمة وخارت سائر القوى، فأشد ما يحذر من دخول الوهن عليه هو الإرادة، ولهذا يقال في قواعد الحروب أن "كسر إرادة العدو أفضل من قتله" لأنه بكسر إرادته لا تقوم نفسه للقتال ولا تتحرك، ويقوم المكسور كذلك بكسر إرادة من معه وتثبيط عزائمهم، وهذا أكبر داع للهزيمة، ولهذا الأعداء لا يألون جهداً في العمل على كسر الإرادة لدى المجاهدين، وثل عزائمهم وحل صبرهم ومصابرتهم بكل ما أتوا من قوة، سواء أكان ذلك عن طريق الضربات العسكرية أو عن طريق ما يسمى بالحرب النفسية، ثم الآية الثانية في سورة الفتح فقال تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿**فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ فنهاهم عن أن يهنوا في أنفسهم فيهنوا في حربهم ضد الكفار، فيدعوهم هذا إلى مهادنة الكفار مع كونهم قوة قوية.

وأوضح في الدلالة على المراد قوله تعالى في النهي عن هذا الوهن مخاطباً المجاهدين: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ**﴾ أي: لا تهنوا في طلب الكفار بالقتال، فإن كان الألم يصيبكم ويطرقكم، فإنه أيضاً يطرق الكفار كما يطرقكم.

ومن الصور التي تبين أهمية أن يكون المجاهد؛ صلب الإرادة، عصي العزم، قوي النفس، شديد الأركان؛ مهما طرقته مطارق البلاء، ومهما كثرت الجراح وأثقلته المحن واللأواء، هو ذكر القدوة الصالحة من الأنبياء والأمم السابقين بأنهم قد قتل معهم جماعات وزرافات كثيرة، ومع شدة المصائب التي أصيبوها في سبيل الله؛ لم يدعوا للوهن والضعف والذل والاستكانة فرصة أن يطرق نفوسهم بسبب ذلك، فضلاً على أن يعشعش فيها كما قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾.

قال ابن عاشور في تفسيره: "وجمع بين الوهن والضعف، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف، فالوهن قلة القدرة على العمل، وعلى النهوض في الأمر، وفعله كوعد وورث وكرم. والضعف – بضم الضاد وفتحها – ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأول أقرب إلى خور العزيمة؛ ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة.

وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو. ومن اللطائف ترتيبها في الذكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلة والخضوع للعدو" انتهى.

وهذه الآيات تبين أن السبب الرئيسي الذي يجعل الوهن يتطرق إلى النفس إن استجابت له وتأثرت به هو المصائب والابتلاءات والألآم المنصوبة على طريق الجهاد، وتكررها من فترة إلى أخرى على طول الطريق، وهذا يجره إلى اليأس من القدرة على النهوض أو إيثار الراحة والعافية وكلاهما يؤديان إلى الوهن، ولهذا أكد الله تعالى عليه في غير ما آية مما سبق من النهي عن الوهن؛ وذكر القدوة الصالحة والنموذج الأمثل في التعامل مع المصائب والابتلاءات وطول الطريق؛ بأن لا تؤثر على النفس وعلى عزيمتها وإرادتها، فتصبر وتحتسب وتكمل طريقها على نفس النشاط وعلى نفس المسار وعلى نفس الهدف.

وقد رأينا كيف أن العزائم قد تبرد لدى بعض الإخوة في منتصف الطريق، والدماء تتخثر أثناء المسير، فإما أن تستلب عزيمته مطلقاً فيعود منتكساً راجعاً على أعقابه، مسلماً نفسه للأعداء وتاركاً لذروة سنام الإسلام، وإما أن تبقى له أصل عزيمته ولكن يفقد قوتها وفورتها ويقل عطاؤه ونشاطه وتضعف حركته وسعيه، والله المستعان.

ومن النماذج والقدوات في باب التعامل مع المصائب والابتلاءات وعدم الخضوع لها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد ضربوا أعظم الأمثلة في الصبر والتجلد، وقد مدحهم الله تعالى حين كان يوم أحد؛ وبعد رجوعهم من المعركة بجراحهم ومصابهم جاء الخبر فوراً بعزم المشركين على العودة وغزو المدينة، فأمر الرسول ﷺ من حضر الوقعة بالمضي معه نحو المشركين خارج المدينة، فاستجابوا مباشرة لأمره وخرجوا معه لمنازلة المشركين من جديد ودمائهم لم يقف نزيفها بعد، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ فأثنى الله عز وجل على الصحابة الذين استجابوا للأمر بالخروج إلى قتال المشركين بعد غزوة أحد، وكانت الجراح قد أنهكتهم، والمصاب قد عمهم، ومع ذلك تجلدوا وخرجوا وهم كذلك.

وفي هذا يقول العز بن عبد السلام في أحكام الجهاد وفضائله: "التجلد على ما يصيبنا في طاعة الله وجهاد أعداء الله صلابة في ديننا، وموهن لقلوب أعدائنا" انتهى.

وقد جاء في السيرة من نماذج تجلد الصحابة وصبرهم ومصابرتهم ما وراه معاذ بن عمرو قال: «جعلت أبا جهل يوم بدر من شأني فلما أمكنني؛ حملت عليه، فضربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة بن أبي جهل على عاتقي، فطرح يدي وبقيت معلقة بجلدة بجنبي، وأجهضني عنها القتال، فقاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني، وضعت قدمي عليها ثم تمطأت عليها حتى طرحتها».

قال الذهبي معلقاً على هذه القصة: "هذه والله الشجاعة، لا كآخر من خدش بسهم ينقطع قلبه، وتخور قواه" انتهى كلامه.

وروى ابن المبارك عن حنظلة بن أبي سفيان: "أن سالماً مولى أبي حذيفة كان حامل اللواء يوم اليمامة، فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره، فاعتنق اللواء، وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ فلما صرع، قال: ما فعل أبو حذيفة؟ قيل: قتل، قال: فما فعل فلان – لرجل سماه –؟ قيل: قتل، قال: فأضجعوني بينهما". انتهى

أيخيفني العشب الضعيف أنا الذي أسلمت للشوك الممض أديمي

وهنا لفتات لطيفة في هذه الآيات، تعزيتان وحض من الله تعالى، فأما التعزية الأولى فلكل مجاهد في سبيل الله قد عايش شيئاً من الجراح والآلام في طريق الجهاد، وهي أن الله تعالى ذكر أن الألم والجرح الذي يصيب الكفار في الجهاد هو مشابه للألم الذي يصيب المسلمين، وذلك في الحس النفسي والداخل المعنوي، وإن اختلف الكم والكيف في النكاية والنيل.

فكل ما ينتاب المسلمين والمجاهدين من نيل الكفار ونكايتهم؛ من هموم وأحزان ومخاوف وعناء وغيظ وسائر الآلام النفسية والمعنوية؛ تشابه ما ينال الكفار وتصيبهم من نكاية المسلمين والمجاهدين، وإن كان نيل الكفار في الحس المشاهد والواقع الميداني قد يكون أكبر وأكثر، كما قال تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**﴾ ولا يتعلق القرح هنا بالجراح الحسية بل يدخل في ذلك الألم المعنوي التابع للجراح، وقد جاءت قراءة أخرى بضم القاف وفسرها أبو عبيد بألم الجراح.

وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾.

والسبب في ذلك – وهي التعزية الثانية – هو ما ذكره الله تعالى في الآية السابقة، وهي أن المجاهد مقبل على الله تعالى بقلبه، يرجو من الله أموراً عظيمة، فيرجو محبة الله ورضاه عنه في سعيه وجهاده، ويرجو مثوبته وأجره على ما يصيبه وما يلحق به من القتل والجراح، وهذا يخفف من الآلام والجراح بل قد يغيب المجاهد عن الألم برؤية الثواب والأجر، وهذا معلوم ومشاهد، هذا عوضاً عن كون المجاهد يرجو الآخرة وما عند الله ولا يلتفت إلى الدنيا ولا يأبه بها، وعن كونه يرجو ولاية الله تعالى ونصره وتأييده ومعونته وهدايته ويرجو له إحدى الحسنيين ويرجو من الله أن يصيب الله أعداءه بعذاب من عنده أو بأيديهم، فحلاوة الرجاء لله تعالى في جميع ما سبق تمتزج بمرارة الصبر وتخفف منها بل قد تغلبها في أحوال فلا يشعر القلب بها.

وهذا كله ما لا يقوم بقلب الكافر ولا يرجوه، فتأتي الفجيعة والمصيبة بقوة وقعها وشدة صدمتها، ولا يقوم بقلب العدو الكافر من الرجاء لله تعالى وثوابه وموعوده بالأجر ووقوع العوض منه سبحانه ونحوه؛ ما يخفف من أثرها على النفس مصابها ويهون عليها، هذا عوضاً عن تعظيم الكافر للحياة الدنيا وشدة تعلقه بها ومحبته لها، إضافة إلى أنهم لا يرجون ولاية الله وتأييده ونصره ونحو ذلك، وذلك في الجملة.

فمثل وقوع المصائب بالنسبة للمجاهد؛ كمثل اندفاع السيل في مجراه الذي يمر عبر سدود في طريقه يحتفظ كل سد بكمية كبيرة من الماء مما يخفف اندفاع السيل، حتى إذا وصل إلى المدينة يصل إليها بكمية أقل من حجمها الحقيقي، فلا تكون هذه الكمية مدمرة ولا مفسدة أو مهلكة.

وأما الكافر فيصل إليه السيل باندفاعه الحقيقي فلا يجد ما يرده فيكون وقعه أقوى وأشد.

فقد تعظم المصيبة في الواقع الحسي على المجاهدين من قبل الكفار، وفي نفس الوقت يكون النيل من قبل المجاهدين تجاه الكفار نيلاً قليلاً، ولكن في واقع الحال فإنهم يألمون كما تألمون، وهم مستحقون مع ذلك لمقت الله وغضبه، وهذا من أعظم العزاء للمجاهد الصادق المؤمن بوعد الله بالمثوبة والأجر.

وأما الحض فقد أخبر الله تعالى أن الكفار مع إصابتهم بالقروح والآلام فهم صابرون عليه، أو مصابرون لكم، فأنتم أولى بالصبر منهم وأجدر أن تصبروا على الحق الذي معكم.

يقول سيد قطب – رحمه الله – في الظلال على هذه الآية: "ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء.. إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم، ويرتقبون عنده جزاءهم.. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون، لا يتجهون لله، ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة..

فإذا أصر الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من الآلام، وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وإن هذا لهو فضل العقيدة في الله في كل كفاح، فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال، ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد، هنالك يأتي المدد من هذا المعين، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة، معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين، لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة.. ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبداً، حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله، من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض، ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار، وأن تعلم أنها إن كانت تألم، فإن عدوها كذلك يألم.

والألم أنواع، والقرح ألوان.. «**وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ**».. وهذا هو العزاء العميق، وهذا هو مفرق الطريق.. «**وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**».. يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب، ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح" انتهى.

فينبغي للمجاهد الصادق أن يحافظ على قوة إرادته، ويشحذ عزيمته ويجددها من وقت لآخر، ويستمر في عطائه ونشاطه، وأن لا تزيده مطارق البلاء إلا صموداً وإصراراً ومصابرة، وأن يطرد عنه دواع الكسل والتواني والضعف والفتور والتردد والتراجع.

الوقفة الثامنة: الولاية

فمنذ أنزل الله تعالى آدم إلى الأرض إلى يومنا هذا والصراع مستمر بين الحق والباطل، والله تعالى يتولى الحق وأهله، فولي أهل الحق من المؤمنين ومولاهم هو الله عز وجل وهو كذلك ولي دينه وشرعه، والنصوص التي دلت على هذه الولاية كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وهو سبحانه المستحق لهذه الولاية لأنه الخالق الذي بيده تصريف الأمور وتدبيرها كما قال تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**﴾ وقد حصر الولاية فيه سبحانه فقال: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وكفى به سبحانه ولياً ونصيراً كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا**﴾ وأهل الحق هم أولياء الله وحزبه وجنده الذين كتب الله لهم الغلبة والفلاح: ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾.

وأما الباطل وأهله من الكفرة فوليهم الشيطان: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ**﴾.

فالكفار هم أولياء الشيطان وهم حزبه وجنده الذين يظاهرونه ويعاونوه في حربه والذين كتب الله تعالى لهم الخسران، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾.

وهم أعداء الله تعالى قبل أن يكونوا أعداء المؤمنين كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾ وقال في تأكيد هذه العداوة: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ**﴾.

وهم المحادين والمحاربين لله ورسوله ممن حكم الله تعالى عليهم بالكبت والخزي والذل كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ وقال في موضع آخر: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ**﴾ وقد جاء في السيرة أن النبي ﷺ قال يوم بدر قبل المعركة: «**اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَأَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ**» وهم المشاقين لله ورسوله المستوجبين لعقابه كما قال تعالى عنهم: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ .

فمحاربة أهل الباطل من الكفار للحق الذي شرعه الله تعالى لعباده ودينه ومحاربتهم لأوليائه وجنده وحزبه من المؤمنين هو في حقيقة المعركة حرب مع الله تعالى ومحاربة له سبحانه، يقول تعالى عن الكفار في ذلك: ﴿**وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا**﴾ ويقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» رواه البخاري.

وفي رواية أخرى: «**من عادى لي وليًّا فقد بارزني (بادرني) بالحرب**».

قال شيخ الإسلام في المجموع: "فجعل معاداة عبده الوليّ معاداةً له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين" انتهى.

ومن يغالب الله تعالى وجنده في هذا الحرب فإنه مغلوب خاسر هالك لا محالة كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾ وقال: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾ وقال: ﴿**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾.

قال كعب بن مالك – رضي الله عنه –:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

وقد جاء في السير أن المشركين يوم بدر قالوا لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال: «فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله – كما يزعم مُحَمَّد – فما لأحد بالله من طاقة».

وقد جاء في التاريخ أن الْهُرْمُزَانُ قال لعمر – رضي الله عنه – لما أتاه أسيراً: «إنا وإياكم معشر العرب – ما خلَّى الله بيننا وبينكم – كنا نقتلكم ونقصيكم، فلما كان الله معكم لم يكن لنا بكم يدان».

وفي هذه الحرب يتولى الله تعالى عباده الذين يقاتلون في سبيله، ومعنى هذه الولاية أنه محبهم ومتولي أمورهم وناصرهم ومعينهم، ومن أسمائه سبحانه وتعالى "الولي والمولى" وهو بهذا المعنى الذي ذكرنا، وولاية الله تعالى للمجاهدين دائمة وقائمة وشاملة لا انقطاع لها ولا تخصيص فهي شاملة لكل شيء ما دام أنهم قائمين بأمره منتهين عن نهيه صابرين لعدوهم.

وهذه الولاية هي معنى أن الله تعالى هو ركن المؤمنين الذي يأوون إليه سبحانه وتعالى، كما قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد**» متفق عليه، وهي معنى قول النبي ﷺ مخاطباً ربه عز وجل: «**وألجأت ظهري إليك**» متفق عليه.

ومن أظهر معاني الولاية أنه سبحانه وتعالى معهم في هذه الحرب، وقد قال تعالى مخاطباً للكفار ومثبتاً معيته للمؤمنين في هذه الحرب: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ**

وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال مخاطباً المؤمنين في حربهم مع أعدائه: **﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾**.

ويترتب على هذه الولاية أمور كثيرة نذكر جملة منها:

أولاً: شرف من يتولاهم الله تعالى بهذا الأمر:

فكفى بالعبد المؤمن شرفاً وفضلاً له أن يكون الله تعالى هو مولاه ومعه وركنه الشديد الذي يأوي إليه، كما قال جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما –: «فينا نزلت **﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾** بنو سلمة وبنو حارثة وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: **﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾**» متفق عليه، قال الحافظ في الفتح: "أي: وإن الآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم".

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

ومما زادني شرفاً وفخراً ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيا

ويقول آخر:

كفى بك عِزًّا أنك له عبدٌ ... وكفى بك فخرًا أنه لك رَبُّ

ثانياً: نصرة الله تعالى لمن يتولاه:

فإن من أوكد معاني التولي النصرة كما قال تعالى مخاطباً المؤمنين: **﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾** وقال تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين في دعائهم لربهم: **﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** وقال تعالى مؤكداً نصره للمؤمنين: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾** وقد

جعله الله تعالى حقاً عليه: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فمن كان الله تعالى وليه فهو ناصره لا محالة وكفى به سبحانه ولياً ونصيراً.

ثالثاً: كفاية الله تعالى لعباده المؤمنين:

كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي: أن الله تعالى كافيك وكافي عباده المؤمنين، ويقول أيضاً: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عباده**﴾ كما في قراءة حمزة والكسائي.

وذكر الله تعالى مثالاً على كفايته لعباده المؤمنين بما حصل في غزوة الأحزاب فقال: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ**﴾.

رابعاً: إنجاء الله تعالى لعباده المؤمنين:

وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بل جعله الله تعالى حقاً عليه للمؤمنين فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

خامساً: تأييد الله تعالى وإمداده لعباده المؤمنين وإعانته وإبلائه لهم الابلاء الحسن:

وذلك بمختلف أنواع التأييد الإلهي وبجنود الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾ ويقول أيضاً: ﴿**أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ ويقول سبحانه مخاطباً مذكراً نعمه على عباده المؤمنين: ﴿**فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ**﴾.

ومن هذا ما يمد الله تعالى به عباده المجاهدين من الملائكة، كما حدث يوم بدر ويوم أحد كما قال تعالى في بدر: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ وقال في يوم أحد: ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾.

ومن هذا ما يحصل من تسديد رمي المجاهدين وتوفيقهم أثناء القتال كما قال تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

وقد كان الرسول الله ﷺ إذا غزا قال: «**اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل**» رواه أبو داود.

وقد جاء عن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثة حق على الله عونهم، المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**» رواه الترمذي وعبد الرزاق.

سادساً: حفظ الله تعالى لعباده المؤمنين:

كما قال تعالى عن موسى – عليه السلام – لما بعثه الله تعالى إلى فرعون: ﴿**قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾.

وكذلك حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ في طريق الهجرة لما طلبه المشركون هو وأبو بكر – ﷺ – يقول تعالى في هذا الأمر: ﴿**إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾.

سابعاً: دفاع الله تعالى عن عباده المؤمنين:

كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

قال البغوي في تفسيره: "يريد: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم عن المؤمنين" انتهى.

ثامناً: هداية الله تعالى لعباده المؤمنين وإصلاح شأنهم:

فقد أشار القرآن أن أولى ما يترتب على ولاية الله هو إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ وقال عن المجاهدين في سبيله: ﴿**وَالَّذِينَ قاتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ**﴾ وقال تعالى عن موسى – عليه الصلاة

والسلام – لما قال له قومه إنهم لمدركون ومحاط بهم من قبل فرعون وقومه قال: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾.

تاسعاً: إنزال السكينة على المؤمنين وتثبيتهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم:

كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾.

وسبق أيضاً قول جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – تثبيت الله تعالى لقومه يوم أحد قال: «فينا نزلت ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ بنو سلمة وبنو حارثة وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾» متفق عليه.

وفي مقابل هذا فإن الله تعالى يزلزل الكفار ويلقي الرعب في قلوبهم كما قال تعالى مبيناً علاقة إلقاء الرعب في قلوب الكفار بالولاية: ﴿**بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾.

وسيأتي مزيد تفصيل لهذا في وقفة لوحدها.

عاشراً: مكر الله تعالى للمؤمنين بأعدائهم من الكفار وإيهان كيدهم ورده:

كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**﴾ وقال مبيناً علاقة رد الكيد بولاية الله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾.

وسنأتي على الكلام عليه بوقفة لوحدها إن شاء الله تعالى.

الحادي عشر: جعل لمصائب والابتلاءات في صالح المجاهدين:

وقد سبق الكلام على شيء منه في وقفة، ولكن نشير هنا أن الله تعالى قال في معرض الكلام على المجاهدين وتربص الكافرين بهم: ﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾ ولم يقل "علينا" مع أن المصيبة في الأصل على الشخص لا للشخص، ليدلل بذلك على أن ما يصيب المجاهدين من المصائب هو في صالحهم وخير لهم ولو كان أمرا مكروها لهم.

هذه بعض مظاهر ولاية الله تعالى للمؤمنين، وكل هذه الأمور منزوعة من الكفار لأنه لا مولى لهم يأوون إليه ويستمدون منه قوتهم كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾ وقال ﷺ لأبي سفيان يوم أحد: «**الله مولانا ولا مولى لكم**» وفي كثير من الآي القرآني ينفي الله تعالى وجود المولى والنصير للكفار، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ وكون الشيطان ولي الكفار –كما سبق ذكره – هو لا ينافي كونهم لا مولى لهم؛ فإنه لا يقوم بأي شيء ينتج عن هذه الولاية من النصرة والاعانة والمحبة والتأييد، ولهذا لما تراءت الفئتان يوم بدر وكان الشيطان حاضراً، حينها ﴿**نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ ويكون في آخر المطاف التبرؤ منهم في جهنم ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ولهذا يثبت الله تعالى ولاية الشيطان للكفار باعتبارهم يطيعونه ويتبعونه، وينفي الله تعالى وجود أولياء للكفار باعتبار كونهم يحبونهم وينصرونهم ويعينونهم ويمدونهم، كما قال: ﴿**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ وقال تعالى عن علاقة الشيطان بالإنسان: ﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا**﴾ وقد ضرب الله تعالى مثلاً في كتابه فيمن اتخذ ولياً سوى الله تعالى من حيث هشاشة بنيانه وضعف أركانه، فقال: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

يقول سيد قطب – رحمه الله – في الظلال: "إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات، وتختل في أيديهم جميع الموازين، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون، ماذا يأخذون وماذا يدعون؟

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها! وتخدعهم قوة المال، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة، ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب، ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون! وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال، وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب! وتخدعهم هذه القوى الظاهرة، تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول، فيدورون حولها، ويتهافتون عليها، كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت الفراش على النار! وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة، وتملكها، وتمنحها، وتوجهها، وتسخرها كما تريد، حيثما تريد.

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات، أو الدول.. كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت.. حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن.

وليس هنالك إلا حماية الله، وإلا حماه، وإلا ركنه القوي الركين.

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكت بها المعاقل والحصون.

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق، ولم تعد كلمة تقال باللسان، ولا قضية تحتاج إلى جدل، بل بديهة مستقرة في النفس، لا يجول غيرها في حس ولا خيال.

قوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل.

إنها العنكبوت: وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت: ﴿**وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى، وللإغراء والإغواء، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة، هذه تضر بهم وتحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم، وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير" انتهى.

بل إن ولاية الشيطان هي وبال ودمار على أهلها، يقول تعالى عن ولاية إبليس: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ ويقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ وهي من قبيل قوله تعالى: ﴿**يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**﴾ فولايته لهم هي أعظم أسباب إغوائهم وإضلالهم وخسارتهم كما قال تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وقال تعالى عن تزيين الشيطان الضلال لأوليائه وصدهم عن ما فيه خير لهم: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ**﴾.

وقال عن إبليس: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ ولا يجدون منه إلا وعود الغرور: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ وقال تعالى ﴿ **وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ وفي النهاية إنما يعمل كل ذلك من أجل أن يكون حزبه وأوليائه معه في جهنم: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾.

وقد قال حسان بن ثابت – ﷺ – في وعود الشيطان لأوليائه يوم بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن ولاه غرار

والله تعالى بولايته للمؤمنين يقلب الموازين على الكافرين في جميع جوانب الولاية كما سبق، ففي جانب النصر يهزمهم الله تعالى ويكفي أن لم يكن الله وليه فلا ناصر له، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾ وقال: ﴿**وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**﴾.

وفي جانب الكيد يضعف الله كيدهم ويضله، وفي جانب الثبات يلقي الله تعالى في قلوبهم الرعب، وفي جانب الإنفاق على حرب الإسلام يجعل الله تعالى إنفاقهم حسرة عليهم ويغلبهم وغير ذلك، فسلطانه محيط بالمشركين، وأما الشيطان فليس له سلطان على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾.

وولاية الله تعالى وآثار هذه الولاية مشروطة بثلاثة شروط: الشرط الأول: الإيمان، والشرط الثاني: الصبر، والشرط الثالث: التقوى، أما الإيمان فإن النصوص السابقة ذكرت هذا الوصف في معرض الكلام على أي أثر من آثار الولاية، وقد قال تعالى عن وصف أولياء الله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ وأما الصبر والتقوى، فقد قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ فرتب رد كيد الكفار وهو من آثار الولاية بالصبر والتقوى، وقال تعالى أيضاً مؤكداً هذا الأمر في أثر من آثار الولاية؛ وهو الإمداد بالملائكة: ﴿**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ وقال في آخر سورة آل عمران: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ وقال: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ وبحسب توافر هذه الثلاثة شروط تكون الولاية وآثارها، فكما أن الإيمان والتقوى والصبر

يتفاوت، فإن ولاية الله تعالى للعبد وما يرتبط بها من مظاهر يتفاوت، فكلما كان العبد أكمل إيماناً وصبراً وتقوى كلما كانت ولاية الله تعالى له أكمل وهكذا.

وبناء على هذا كله يجب على المجاهد في سبيل الله؛ أن يعلق قلبه بالله ويعتصم به في جميع أموره وفي كل نازلة تنزل فيه، وأنعم به سبحانه من مولى وناصر، كما قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ وعاقبة هذا الاعتصام هو الهداية كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ وقال: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ ولا ينسى استحضار جميع المعاني التي أشرنا إليها، من ولاية الله تعالى له وما يرتبط بذلك من نصرة وإعانة وحفظ وتأييد وغيره، فإن هذا من أقوى ما يقوي قلبه ويشد عزمه وتطمئن به النفوس، فمن كان الله تعالى مولاه فلا يأبه بقوى الأرض كلها ولو تحالفت وتكالبت عليه وكادته بجميع أصناف الكيد والمكر، فإنها لا تساوي شيئاً في ميزان الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ويرى الحركة الكونية تسير في صالحه ضد الأعداء ما دام أنه قائم بأمر الله تعالى مؤمناً متقياً صابراً حتى لو وقعت الابتلاءات والمصائب ومكروهات النفوس، فإن الله تعالى يسخر له جنود السموات والأرض، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الوقفة التاسعة: حسن الظن بالله

حسن الظن بالله من أحسن ما يقرب العبد من ربه، ويورثه العواقب الطيبة في الدنيا والآخرة، فهو من أعظم الأسباب في تحصيل المراد وإحراز المطلوب ونيل الخيرات وحصول المسرات، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة – ﷺ – قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**».

وزاد في رواية ابن حبان: «**إن الله جل وعلا يقول أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله**».

وصح عن أنس – ﷺ – كما رواه الإمام أحمد في مسنده: أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**».

وثبت عند الدارمي في سننه: عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**».

وفي رواية ابن حبان: «**أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً وإن ظن شراً**».

وروي عن ابن مسعود – ﷺ – أنه قال: «والذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله الظن إلا أعطاه ظنه، وذلك بأن الخير في يده» رواه الطبراني في الكبير.

كما أنه سبب للنجاة من سخط الله وعقابه، كما صح من حديث جابر – ﷺ – قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**» رواه مسلم.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: "وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل".

ونقل التنوخي في الفرج بعد الشدة عن بعض الصالحين: "استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل في كشفها، فإن ذلك أقرب بك إلي الفرج".

ومعنى حسن الظن بالله: هو الظن بما يليق به سبحانه ويليق بأسمائه وصفاته، والثقة بموعوده، ورجاء خيره ونواله، والاعتماد على حسن ولايته وتدبيره سبحانه وتعالى، وتوقع العواقب الحسنة والطيبة في المستقبل؛ من تيسير العسير، وتفريج الهموم، وكشف الكروب، وحصول المراد، وبلوغ المرام، وثبوت العوض والخلف منه سبحانه على المصائب، ونحو ذلك.

كما أن لحسن الظن بالله والتفاؤل آثار طيبة على النفس، في بعثها على العمل، وحملها على البذل والتقديم، وبث روح النشاط وعنصر القوة فيها، وشحذ الهمم ودفعها إلى ملازمة العمل والاستمرار والمداومة عليه، والثبات على الطريق، فالمجاهد يحسن الظن بالله في ولايته وحسن تدبيره واختياره له، وحصول ما يرجوه ويأمله، وتأمينه مما يخافه ورد الشرور عنه، وكفايته له من كيد الكائدين ومكر الماكرين، وتسهيل الصعوبات وإزالة العقبات؛ وغير ذلك مما تحبه النفس ويلائمها، ولهذا كان النبي ﷺ يحب الفأل ويعجبه، كما ثبت في الصحيحين عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة**» وروى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**وأحب الفأل الصالح**».

والتفاؤل: هو توقع الخير في الأمور.

وقد ثبت من طرق عن الحسن البصري قال: «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل» رواه ابن أبي شيبة وغيره.

قال الماوردي في درر السلوك: "فأما الفأل فمحمود، لأن فيه تقوية للعزم وباعثاً على الجد، فقد تفاءل رسول الله ﷺ في غزواته وحروبه" انتهى.

قال الشاعر:

أعلل النفس بالآمال أرشدها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وقد أمر النبي ﷺ بالتبشير وبعث البشائر في قلوب الناس، وإحيائها بحسن الظن بالله تعالى وترقب الخير، كما قال ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**» رواه البخاري.

وكان من هدي النبي ﷺ مع أصحابه التبشير المستمر، فقد تواترت عنه هذه الكلمة: «**أبشروا**» وقال أيضاً كما في الصحيحين: «**أبشروا وأملوا ما يسركم**».

بل إن الله تعالى ما أنزل ألوف الملائكة يوم بدر وضاعف أعدادهم؛ إلا ليبعث البشارة والاطمئنان في قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ**﴾.

وحسن الظن بالله هو العماد لعبادةٍ من العبادات العظيمة التي جاءت النصوص الكثيرة في الحث عليها؛ وهي التوكل، فلا يتأتى التوكل بدون حسن ظن بالله ولا يجتمع سوء ظن بالله مع التوكل عليه، فمن كان متوكلاً على الله فهو حسن ظن به سبحانه.

قال ابن القيم في المدارج: "فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له؛ يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم" انتهى.

والعبد المؤمن مأمور بحسن الظن بالله في كل حال، في الرغائب والمصائب وفي السراء والضراء على حد سواء؛ من تفويض الأمر لله، وتوقع الخير والفتح منه سبحانه ونزول رحماته، وتبليغه المراد، وتسهيله العسير، ويتأكد مصاحبة المؤمن لحسن الظن بالله وتوقع الخير وقرب حلوله؛ عندما تشتد الأزمات وتتراكم المصائب وتتابع الآلام وتنهمر الابتلاءات، وتنقطع الأسباب وتفقد الوسائل ويفرغ الوسع، وتخيم في الأرجاء سحائب اليأس ويستحكم الحصار بكتائب القنوط مهددة بالزوال، فعندئذ يأتي الغيث وتنتشر الرحمات وتلوح طلائع الفجر مبددة جيوش الظلام: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ فأمارة اليسر وجود العسر، وأمارة الفرج اشتداد الكرب، وأمارة الخلف والعوض وقوع المصيبة، وأمارة الرحمة واللطف تزايد الاستضعاف، وأمارة التسهيل حلول المعضلات، وأمارة الفجر حلوك الظلام وأمارة الفتح والتنفيس استحكام الضيق والبلاء، وأمارة النصر الزلازل والبأساء: ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ فاشتداد الكرب واحتدام الأمر وعظم المصيبة واستحكام الضيق؛ كل ذلك هو مبعث التفاؤل والاستبشار في الحقيقة، لأنه قد جرت

سنة الله أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجاً، والعسر إذا بلغ أوجه اجتاحه سيل اليسر فقلعه من جذوره، فلم تبق له باقية كما قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ وقال ﷺ في وصيته لابن عباس: «**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**» رواه أحمد، وقد روى البيهقي عن عبد الأعلى التيمي أنه قال: "أعد لعظيم الأمور حسن الظن".

ولـرب نازلـة يضـيق لهـا الفـتى ذرعـا وعنـد الله منهـا المخـرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجـت وكنـت أظنهـا لا تفـرج

وقد قص الله علينا من أخبار الأنبياء والصالحين من قبلنا؛ في حسن ظنهم بالله وثقتهم به سبحانه عند إحاطة الكرب بهم وحلول الشدة عليهم، وتوكلهم على الله واعتمادهم عليه ما تتثبت به القلوب وتطمئن له النفوس، فهذا نوح وهود – عليهما السلام – يجابهان أقوامهم المشركين متحدين لهم باستجماع أكبر قدر ممكن من مكرهم وكيدهم ضدهما، وهم في ذلك معتصمان بالله والتوكل عليه والثقة به سبحانه، فيقول نوح لقومه: ﴿**إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ**﴾ ويقول هود – عليه السلام –: ﴿**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

وفي قصة يعقوب مع ابنه يوسف – عليهما السلام – لما تتابع البلاء عليه بفقد ابنه الثاني بعد يوسف – عليهما السلام – كان التفاؤل وحسن الظن بالله هو سيد الموقف فيقول تعالى: ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**﴾ وكانت العاقبة من الله تعالى أن أرجع الله عليه ولديه في أفضل حال وأعز ما يكون.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قصة أم إسماعيل هاجر: «أن إبراهيم جاء بأم إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء،

فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا... وبعد ذلك في آخر القصة: لما بلغت الشدة مبلغها من الظمأ ظهر الملك وفجر ماء زمزم لها، ثم قال لها: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله» رواه البخاري.

وهذا موسى – عليه السلام – ومن معه من المؤمنين عندما طاردهم فرعون وجنده، وأحاط بهم البحر وبلغ بهم البلاء مبلغه، وظنوا أنهم مدركون من قبل عدوهم، وأنه سيصلهم ويستأصلهم، كان موقف موسى ثابتاً راسخاً معلقاً قلبه بالله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُون (61) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين**﴾ فجاءه الفرج والتأييد بقوله: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ...**﴾.

وفي قصة الملأ من بني إسرائيل مع طالوت، فلما تناقص جند طالوت ولم يبق معه إلا القليل مقارنة بجند جالوت ودنو الجيشين من بعضهما البعض قالت طائفة: ﴿**لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ فرد عليهم مباشرة الموقنين بالله والمحسنين الظن به سبحانه: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ وكانت النتيجة: ﴿**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ**﴾.

وعبادة حسن الظن لها علاقة وثيقة بعبادة الجهاد، فقد وردت نصوص خاصة بهذه العبادة مع الجهاد والمجاهدين، وكذلك حال الذين في قلوبهم مرض والمنافقين في الجهاد مع هذه العبادة، وهي تدل على أن آكد ما يكون حسن الظن بالله في الجهاد، ويهمنا كمجاهدين معرفة مكانة هذه العبادة بالنسبة للجهاد وأهله.

وذلك لأن الجهاد في سبيل الله عبادة فيها مشقة وابتلاء، ويلازمها طريقها الطويل الأهوال والمتاعب، ولكن ما يحدوا المجاهد في هذا السفر ويلطف سبيله وينير طريقه ويضمد جراحه، ويجعله صامداً ثابتاً مستمراً على المسير؛ هو حسن الظن بالله، والثقة بموعوده في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالجنة وتولي الله تعالى لهم وركونهم إليه سبحانه، فهذا هو الحادي، فمن قام بقلبه هذا الظن الحسن؛ سمع الحادي واستمر حتى يفضي إلى موعود الله سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومن لم يقم في قلبه شيء من حسن الظن بالله والثقة به سبحانه؛

صم سمعه عن الحادي وأظلمت عليه الطريق فانقطع وانعطب، وتناوشه قطاع الطريق حتى يفضي إلى سخط الله والعياذ بالله.

وكذلك الجهاد في سبيل الله عبادة فيها وعود من الله تعالى من النصر والتمكين والأمن والحفظ والتأييد وغير ذلك، فلابد أن يصاحبه حسن ظن بالله سبحانه والثقة بموعوده حتى تترتب عليه آثاره، ولهذا لما كان المنافقون لا يملكون من الإيمان ما يحملهم على تصديق موعود الله والثبات في الابتلاءات؛ ساءت ظنونهم بربهم تعالى في الجهاد، وقص الله تعالى علينا في كتابه هذا شيئاً من أحوالهم مع ظنهم بالله.

والمجاهد في سبيل الله يحسن الظن بالله؛ أنه يتولاه ويحسن تدبيره في الجهاد على أكمل الأمور، علم حكمتها أو جهلها في السراء والضراء، وأنه لن يضيعه أو يكله إلى عدوه، وأنه سبحانه ناصره ومؤيده على عدوه، وأنه سبحانه يكمل نقصه ويقضي حاجته ويبلغه مراده، وأنه سبحانه يرد كيد أعدائه ويمكر له بهم ويكفيه شرهم وغير ذلك؛ من تفويض الأمر لله وتوقع الخير والفتح منه سبحانه حتى في أحلك الظروف وأشد الأزمات؛ يبقى حسن الظن بالله وبتدبيره هو المظلة التي ينطلق من تحتها المجاهد، معتقداً أن أنه مهما ازدادت الشدة فلله فيها أحكام وحكم، هي في الحقيقة في صالح المجاهدين، أدرك بعضها أو جهلها كلها، فهو وليه ومولاه.

وهكذا كان حال النبي ﷺ في حسن الظن بالله والثقة به سبحانه، فقد كان حسن الظن بالله واثقاً بموعوده، بل كان أشد ما يكون تفاؤلاً واستبشاراً ومحسناً الظن بالله ومؤملاً به الآمال الحسنة؛ عندما تشتد عليه الأمور وتضيق عليه الأحوال ويعظم الكرب، فتجد النبي ﷺ رابط الجأش مطمئن النفس، مبشراً ومستبشراً، متفائلاً لأن هذا علامة ارتفاعه وزواله ونزول الرحمات والألطاف من المولى الرحيم، وكلما اشتد الحبل انقطع، وكلما ضاق الأمر اتسع، بل تجد أعظم البشارات التي خرجت من النبي ﷺ خرجت في أعظم ما يكون من الشدة سواء في العهد المكي أو العهد المدني، وشواهد السيرة لهذا الأمر كثيرة:

فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل،**

فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا مُحَمَّد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً».

ففي هذه الحال التي كانت من أشد ما وقع للنبي ﷺ من بلاء، بل أشد مما حدث يوم أحد مع أنه فقد خيرة أصحابه فيه، وفي ذروة ما وصل إليه من إعراض الناس عن دعوته، تجده ﷺ متفائلاً بأن يخرج الله تعالى من أصلاب المشركين الموحدين الذين يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً.

وفي أشد حالات الاستضعاف والقهر التي تمر بالصحابة والمسلمين في مكة؛ تجد النبي ﷺ متفائلاً ومواسياً لأصحابه ومبشراً بحصول الأمن والتمكين، فيقول خباب بن الأَرَت – رضي الله عنه –: «أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: يا رسول الله! ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**لقد كان من قبلكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض، ثم يوضع فيها، ثم يوضع المنشار على رأسه فيشق نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، لا يصده ذلك عن دينه، والذي نفسي بيده! ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**» » رواه البخاري.

وقد روى الحاكم عن جابر – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: «**أبشروا آل عمار، وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة**».

وفي طريق الهجرة، وعند استنفار كفار قريش في للقبض على رسول الله ﷺ، يظهر جلياً حسن ظن النبي ﷺ وثقته بالله فيقول أبو بكر – رضي الله عنه – قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»» متفق عليه.

وعندما طاردهما سراقة في طريق الهجرة قال أبو بكر – رضي الله عنه –: «يا رسول الله أتينا، فقال: «**لا تحزن إن الله معنا**» فدعا عليه رسول الله ﷺ، فارتطمت فرسه إلى بطنها» متفق عليه.

وقد جاء في السيرة النبوية، أن النبي ﷺ قال للصحابة عند المسير إلى بدر: «**سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدا**».

ونقلت لنا السيرة النبوية عن البراء أنه لما كان يوم الخندق، وعند تزلزل القلوب واجتماع الأحزاب على المدينة في موقف وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾ عرضت للصحابة في حفرهم الخندق صخرة لا تأخذ فيها المِعَاوِل، فاشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «**بسم الله**» فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**» ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض**» ثم ضرب الثالثة وقال: «**بسم الله**» فقطع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة**».

وجاء أيضاً أن النبي ﷺ أثناء اشتداد الحصار عليه من قبل المشركين في تلك الغزوة، أتاه خبر أن يهود بني قريظة قد أعلنوا الحرب ونقضوا العهد، وبذلك يستحكم الحصار على المدينة، فقال رسول الله ﷺ عندها: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين**».

وجاء أيضاً: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول: «**والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا، وأن يدفع الله عز وجل مفاتح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»".

ثم قال بعد انتهاء الغزوة كما في البخاري: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**».

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالاقتداء بالنبي ﷺ وأحواله على سبيل العموم، وفي تلك الغزوة على سبيل الخصوص، كما قال تعالى في سياق الآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب في سورة الأحزاب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾.

وكذلك قص الله تعالى علينا حال الصحابة والمؤمنين في حسن الظن بالله والثقة بموعوده في الجهاد عند اشتداد الكرب وتفاقم الخطب في غزوة الأحزاب فقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾.

وكذلك بعد الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة أحد، ومع شدة الحال يصلهم خبر أن المشركين يجمعون لهم ليستأصلوهم في المدينة، فيقص الله تعالى من خبرهم فيقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾.

فالصحابة لم يزدهم الابتلاء في الجهاد إلا إيماناً وتصديقاً بموعود الله، واعتصاماً بالله والتوكل عليه وحسن الظن به سبحانه.

وقد بلغ من حال الصحابة في حسن ظنهم بالله وعظيم ثقتهم به؛ أن سخر المنافقون بهم لذلك، وأنهم بذلك مغرورون ومخدوعون، فيقول تعالى حاكياً عنهم: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ**﴾ ثم قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

وقد روى ابن أبي شيبة عن أسلم مولى عمر قال: «لما أتى أبو عبيدة الشام حضر هو وأصحابه وأصابهم جهد شديد، وفي رواية: أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب، يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم. فكتب إليه عمر: سلام، أما بعد فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجاً ولن يغلب عسر يسرين، وكتب إليه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾».

وقد جاء في رواية أخرى من طريق آخر: «فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن مُحَمَّداً ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تراجعوني. قال الراوي: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً».

هؤلاء قدواتنا الذين رسموا لنا الطريق، وأوضحوا لنا المحجة، وضربوا لنا أعظم الأمثال في تعلقهم بالله وحسن ظنهم به وركونهم إليه؛ عند الشدائد والأزمات وعند تحزب الأحزاب وتكالب الأعداء، وإنهم وحدهم أولئك

الـذين يتعلقـون بالله ويحسـنون الظـن بـه ويثقـون بموعـوده ويوقـون بنصـره؛ هـم الـذين يثبتـون علـى الطريـق، ويصابرون الأعداء ويواجهون العواصف، ويصنعون التاريخ ويغيرون الواقع ويبنون المجد، وإن أولئك اليائسين الـذين يغرقـون في مـوج البـلاء الآني ومحيطهم الحاضـر، ولا ينظـرون بعـين حسـن الظـن إلى مـا وراء ذلـك مـن موعود صادق وسنة نافذة وحِكَمٍ وأحكام – ولو طال الزمان – لا يتقدمون خطوة للأمام، فضلاً على أن يبنوا نهضة بل لا يزالون في تقهقر وانحدار.

عسى الكرب الـذي أمسيت فيه ... يكـــــون وراءه فـــــرج قريـــــب
فيـــأمن خـــائف ويُفـــك عـــانٍ ... ويأتي أهلـــــه النـــــائي الغريـــــب

وإن المجاهد في سبيل الله يلزمه لزوماً أن يصاحبه حسن الظن بالله والثقة به ضرورة، ولا ينفك عنه طرفة عين، فهو غذاؤه الذي يتقوى به على المضي إلى هدفه، ومركبه الذي يقطع به طول الطريق ويخفف من وعورته، فمهما عمقت الجراح، وتفاقم المصاب، واشتدت الكروب، وادلهمت الخطوب، واستحكم الحصار، وتعاظم الكيد والمكر الكبار، وتحالف الأعداء، وكثر الخاذل والمخالف، وقل الناصر والمعين، فإن حسن الظن والثقة بالله هو طابع المجاهد الصادق، فيحسن الظن به سبحانه أنه مولى المؤمنين وناصرهم ومعينهم، وأنه ناصر دينه ومتم نوره ومعلي كلمته، وأنه لن يديل الباطل وأهله على الحق وأهله إدالة يزيل بها أهل الحق، وأنه يتولى عباده المجاهدين ويدبرهم بما يصلح شأنهم وأمورهم، وأن وراء العسر والشدة والظلام فجراً وفتحاً ويسراً ونعمة ورحمة قد غاب عنه مستقبله، ولكن شهدت بذلك شواهد حاضره:

كـم في ضـمير الغيـب مـن أسـرار ... تهـدي اليسـار إلى ذوي الإعسـار
فاستشـعر الظـن الجميـل توقعـا ... لمنـــاجح الأوطـــار في الأطـــوار

ومن أعظم ما يعين على حسن الظن بالله بالنسبة للمجاهد أن يتأمل في أسماء الله وصفاته، ويمعن النظر فيها محصياً لمعانيها، فإنها ينبوع الظن الحسن، بل كل ظن حسن فمصدره أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته، وعليه أن يعتبر بسنن الله الكونية ويفقهها عبر ما قصه الله تعالى علينا وعبر سير الصالحين وحوادث التاريخ، وعليه

أن لا يستمع لترهات اليائسين وثرثرات المنكسرين والمنهزمين، ممن يعيشون في لحظة الواقع ومحيطه، ولا تتسع نظرتهم إلى أكثر من ذلك فهي هباء لا حقيقة وراءها، وكذلك يجتنب التركيز على نقاط الضعف لديه ولا يضخم نقاط القوة لدى عدوه؛ بل يدير النظر إلى نقاط الضعف لدى عدوه وتألمه وجراحه، وأن يعيش في واقع أمره وينساب معه ويبتعد عن المثالية في الطرح حتى لا ينصدم بالواقع فيداخله الإحباط واليأس، وأن يعلم أن من صفات الطريق الذي يسلكه الطول والبعد، وأن سنن الله تجري على أطوار متدرجة فلا يستعجل المراحل أو يتقفز الأطوار، وأن النصر مع الصبر، وكذلك لا يغيب عن باله أن الأمة اليوم تعيش حالة نهضة وقيام وتقدم للأمام بعد سني التقهقر والغربة.

ومن أهم ما يجب على المجاهد استشعاره؛ أن الأعداء في الحقيقة هم الذين يئسوا من أهل الإسلام أن يستأصلوهم أو يطفئوا نور الإسلام، كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾ ولا تزال تصريحاتهم إلى الوقت الحاضر بأنه لا يمكن القضاء على ما يسمى بالإرهاب، ويقصدون بذلك الجهاد وأهله، وكل محاولاتهم اليوم في حربهم مع المجاهدين إنما هو معالجات ومحاولات فقط لتأخير النصر وتأخير النتيجة وليس لدرء وقوعها، فإن وعد الله واقع، ماله من دافع، فلا يأبه المجاهد في سبيل الله بكل محاولات الأعداء في إخماد الجهاد أو إطفاء جذوته، ولا يخشى من أثرها وليجعل خشية الله تعالى هي المقصد كما أرشد إليه في الآية: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾.

ولا يغيب عن بال المجاهد أن النصر والتمكين لن يتنزل حتى يبلغ البلاء من أهل الجهاد مبلغه ويزلزلوا زلزالاً شديداً، ويمسهم البأساء والضراء، ويبتلوا في أموالهم وأنفسهم، ويسمعوا من الذين أوتوا الكتاب ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، ويبتلوا بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وحتى تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، ويستحر القتل في صفوفهم، وحتى تتألب عليهم الأحزاب، ويتحالف ضدهم الأعداء، فيأتوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وحتى يقتل سراتهم ويقاد للأسر خيارهم، ويكثر الساقطون والمنتكسون على أعقابهم، وحتى يلتفتوا يميناً وشمالاً فلا يجدوا بصيص نور يلمح بانفراج قريب، أو واقعاً يبعث أملاً بعهد خصيب، وكل هذا هو الجسر الذي يعبر منه السالكون لطلب النصر والتمكين وتلك سنة الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾.

قال ابن جرير في تفسيره في معنى الآية: "أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثلُ ما أصاب مَن قبلكم مِن أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتُبتلوا بما ابتُلوا واختبروا به من "البأساء" وهو شدة الحاجة والفاقة، "والضراء" وهي العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوِّهم، ومظهرهم عليه، فنجَّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا" انتهى.

ومن أهم الأمور التي يجب أن تصاحب حسن الظن بالله؛ التقوى والصبر وحسن العمل والأخذ بعوامل النصر، فإن حسن الظن لابد أن يكون معه عمل، وإلا كان من الغرور والتمني المذموم، فسفك الدماء المحرمة وظلم الناس والاستغراق في المعاصي وتكفير المسلمين وتفريق كلمتهم وسلب حقوقهم، وكذلك التوسل بالشرك والكفر وموالاة الأعداء ومخالفة الهدي النبوي؛ وغير ذلك من سوء الأعمال التي تسبب نزول العقوبات من الله، هذا مما يتنافى معه حسن الظن، وقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أول ما نزل به الوحي وجاء إلى خديجة – ﵂ – وأخبرها الخبر وقال: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت خديجة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" فبنت حسن ظنها على أن الله تعالى لا يخزيه بالأعمال التي ذكرتها.

وأخيراً ليكن لسان حال المجاهد الصادق، وهو يترقب موعود الله تعالى وينتظر خيره ونواله:

وإني لأرجـــو الله حـــتى كـــأنني أرى بجميـل الظـنّ مـا الله صـانع

***

الوقفة العاشرة: سوء الظن بالله

فإن سوء الظن بالله مما جاءت الشريعة بالتحذير والتنفير منه والزجر عنه، وهو من خصال المشركين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾.

وسوء الظن بالله يورث العواقب الوخيمة على الظان، ويكون سبباً في حصول المكروه عليه ووقوع ما ظنه وتوقعه من السوء، كما قال تعالى: ﴿**الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ وقد سبق في الأحاديث ذكر ذلك في قوله: «**أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله**» ولهذا كل الأحاديث التي رويت بلفظ: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي**» لا يصح منها شيء فلا يختص وقوع المظنون بالظنون الحسنة.

وسوء الظن كذلك له آثار وتداعيات سيئة على النفس في إحباطها وصدها عن العمل، وخمود عزمها وفتور نشاطها، والاستسلام للواقع والركون إليه والشعور بالخيبة واعتقاد العجز؛ فتُقتَل الإرادة، ويُقضَى على المبادرة، بل هو العماد لذنبين من أعظم الذنوب وهما: القنوط من رحمة الله، واليأس من روحه وتنفيسه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ فكل يائس أو قانط فهو سيء الظن بالله ولابد، بل قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر: "أن سوء الظن بالله أبلغ من اليأس والقنوط، لأنه يأس وقنوط وزيادة، لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده" بل إن سوء الظن بالله تعالى يورد العبد الموارد المهلكة والسبل المضلة، وقد يجره إلى الانتكاس عن الطريق والارتداد عن الدين والكفر بالله تعالى، ولحوق الردى والخسران به، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿**وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

ولهذا جاءت الشريعة بنفي الطيرة والتشاؤم، لأن فيها إساءة الظن بالله، قال الحليمي: "إنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال" انتهى.

ويكفي لتعرف عظم ذنب سوء الظن بالله وما يترتب عليه، أن الله تعالى عرف به المشركين والمنافقين ليرشد إلى أن هذا الذنب سمة غالبة فيهم وقائدهم إلى الضلالة كما سبق في قوله تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾.

وقد ثبت من طرق عن الحسن البصري قال: «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل» رواه ابن أبي شيبة وغيره.

وكما أن حسن الظن بالله له تعلق وثيق بالجهاد، من حيث أنه سمة المؤمنين، فكذلك سوء الظن له تعلق وثيق بالجهاد من حيث أن سمة المنافقين، فإن البلاء المصاحب للجهاد إذا نزل يزلزل الإيمان في القلوب ويتمحص المؤمن به من المنافق، فأما الذين آمنوا فيزدهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فيزيدهم رجساً إلى رجسهم ويظهر نفاقهم وتتجلى حقائقهم، وقد جاءت النصوص تبين كيف أن سوء الظن بالله هو طابع المنافقين في الجهاد، والمظهر البارز لهم في معظم الغزوات التي شاركوا فيها، وكلما تفاقم البلاء في الجهاد كلما ازداد المنافقون نفاقاً وبرز سوء الظن كسيد للموقف، كما تعالى عنهم في غزوة أحد بعد وقوع الهزيمة: ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾.

وقد قص الله علينا شيئاً من أخبارهم في هذا، فهم مثل السوء وقدوة أهل الظن السوء، وكذلك أنكر الله تعالى في كتابه بعض الظنون التي تخالف ما يليق بأسمائه وصفاته، وتصادم سنته لمن لم يفقهها.

فمن تلك الظنون بأن الله تعالى لا ينصر رسله ولا دينه ولا جنده، كما قال تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ فمن كان يظن أن الله لا ينصر نبيه ولا دنيه ولا كتابه، فليعلق حبلاً في عنقه ويربطه في السقف ثم ليقطعه ويمت خنقاً وغيظاً، فإن الله تعالى ناصر نبيه ودينه، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ**﴾.

ومثله الظن بأن الكفار بقوتهم وعتادهم وعزمهم على القتال لا يمكن أن يهزموا أو يكسروا ونحو ذلك: كما قال تعالى عنهم في غزوة الخندق: ﴿**يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا**﴾.

فهم لسوء ظنهم بالله واستغراقهم في الواقع المحيط – حتى بعد انهزام الأحزاب وردهم على أعقابهم خائبين – لم يصدقوا هذا البتة، ورأوا أنه من الاستحالة بمكان أن يقع مثل هذا حتى مع ورود الخبر بذلك.

ومثله ما رواه ابن أبي شيبة من طريق عروة بن الزبير أن رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت "فخرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى بدر وهي امرأة عثمان، فتخلف عثمان وأسامة بن زيد يومئذ، فبينما هم يدفنونها إذ سمع عثمان تكبيراً، فقال: يا أسامة! انظر ما هذا التكبير؟ فنظر، فإذا هو زيد بن حارثة على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجدعاء، يبشر بقتل أهل بدر من المشركين، فقال المنافقون: لا والله ما هذا بشيء، ما هذا إلا الباطل، حتى جيء بهم مصفدين مغللين".

ويشبه هذا: الظن بأن الكفار بقوتهم وعتادهم خارجين عن قدرة الله تعالى وقبضته وسلطانه وقهره ونزول عقوبته، كما قال تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ وبالمناسبة فهذه الآية جاءت بعد وعد الله للمؤمنين بالتمكين والاستخلاف.

وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾.

وبعض الناس وإن أقر بلسان قاله بأنهم تحت قبضة الله، فإنه بلسان حاله وما ترتب على ذلك من سوء فعاله يقر بخلاف ذلك.

ومنها الظن بأن الله يديل الكافرين على أهل الحق إدالة مستقرة يضمحل معها أهل الحق ويستأصلوا عن بكرة أبيهم، كما قال تعالى عن المنافقين لما تخلفوا عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند مسيره إلى مكة: ﴿**بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾.

قال سيد قطب في الظلال معلقاً على هذه الآية تعليقا يشعرك كأنه يعيش بين أظهرنا ويرى مواقف بعض الناس من حولنا: "وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء، وقد ظنوا أن الرسول من معه ومن المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة، وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده، كما أنهم – بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة – لم يقدروا أن الواجب هو الواجب، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت، وأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية، فهي واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا في سواه، وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور، وهو تعبير عجيب موح، فالأرض البور ميتة جرداء، وكذلك قلوبهم، وكذلك هم بكل كيانهم، بور، لا حياة ولا خصب ولا إثمار، وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بوراً، ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة، الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله، البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة، هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال، وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في العدة، أو قلة في المكان والجاه والمال، هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة، ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة، ويتوقعون في كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المخوف بالمهالك ! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا، ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية، الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قوماً ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!" انتهى.

وقال تعالى عن المؤمنين والمنافقين عامة في غزوة الخندق: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾.

قال الحسن البصري في هذه الآية: "ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن مُحَمَّداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله ورسوله حق، أنه سيظهر على الدين كله".

ومن ظنون المنافقين السيئة بالله ظنونهم بوعد الله من التأييد والحفظ والتمكين والإمداد والإعانة ونحو ذلك أنها لا تتحقق، وأنها غرور والسخرية بوعده سبحانه، كما قال تعالى عنهم عند إحاطة الأعداء بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**﴾.

وقد ذكر المفسرون أن المنافقين يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب، فكانوا في شك وريبة من أمر الله، قالوا: إن مُحَمَّداً كان يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ههنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته، فأنزل الله هذه الآية.

وقد جاء عنهم أيضاً أنهم قالوا: «نحن بخندق، وهو يعدنا قصور فارس والروم».

وقالوا: «والذي يحلف به لا يستقبلها مُحَمَّد أبداً».

وقالوا: «دعوا مُحَمَّداً وأصحابه فإنه هالك مقتول».

وقد سخروا كذلك بالمؤمنين الواثقين بموعوده ونصره، كما قال تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

وقد أكد الله تعالى وعده لرسله وللمؤمنين في غير ما آية من كتابه، وأكد ذلك أيضاً بالنهي عن الظن به سبحانه أنه يخلف وعده، كما قال تعالى: ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾.

فالمنافقون لا يثقون بموعود الله بالنصر والتمكين، وظنونهم بالله سيئة، ولهذا في بعض الآيات التي تبين هذا الحال الذي يسلكه المنافقون، يعقب الله تعالى ما يشير إلى نصره وتأييده لعباده المجاهدين والثقة بذلك والتوكل عليه في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ وقوله: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

وأنقل هنا باختصار كلاماً نفيساً لابن القيم في زاد المعاد في الكلام على قوله تعالى عن المنافقين يوم أحد ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾: "وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر

رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في (سورة الفتح) حيث يقول:

﴿ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله.

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء.

ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتباً على القدر وملامة له واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فـــإني لا إخالـــك ناجيـــا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

"فـلا تظـنن بربـك ظـن سـوء فـــــإن الله أولى بالجميـــــل
ولا تظـنن بنفسـك قـط خـيراً وكيـف بظـالم جـان جهـول".

إلى آخر ما قال – رحمه الله –.

وليعلم أن كل سوء ظن في قلب العبد باعثه الشيطان ووسوسته وتهويله فهو يعد العبد بحصول الشر ووقوعه، كما قال تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

ولخطورة سوء الظن بالله بالنسبة للمجاهد؛ كرر الله تعالى ذكره في القرآن في غير ما آية كما سبق، فينبغي للمجاهد الصادق أن يحذر غاية الحذر من إساءة الظن بالله مع حوادث الجهاد ومستجداته، فيقع في خصال المنافقين ويكون ذلك سبباً في انتكاسته ورجوعه عن الحق وترك مصابرة الأعداء، فيكون ذلك سبباً في سخط الله عليه واستبداله بغيره، فإنه لن يضير الله ولا دينه شيئاً ولن يضر إلا نفسه ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين.

***

الوقفة الحادية عشر: دور المكر والكيد

فإن الصراع بين الحق والباطل سنة مطردة، لا انقطاع لها ولا وقوف منذ هبط آدم من الجنة وإلى يومنا هذا، ووقود أهل الباطل في هذا الصراع وعمدة أدواتهم في إدارة المعركة وتحريكها تجاه أهل الحق يقوم على المكر والكيد، فكل ما يقوم به أهل الباطل ويظهر في معركتهم مع أهل الحق إنما هو نتائج وإفرازات هذا الكيد والمكر والتطبيق الواقعي له، ومثال واضح على ما خاطب الله به نبيه عند هجرته إلى المدينة: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾ فجعل القتل والإخراج والإثبات – وهو الحبس والسجن – كلها من مخرجات ذاك المكر، وذلك لأنه لا حدود لمكر الباطل وكيده ما دام أنه مقدور له ويرى أنه في صالحه؛ لأنه لا يتخلق بأخلاق الحق ولا تحكمه المبادئ والقيم، وجل نظره مقصور على الماديات والمصالح، ولأهمية هذا الأمر في المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل؛ جاءت الآيات القرآنية الكثيرة تبرز هذا المعنى وتجليه من جميع جوانبه، ومن تتبع الآيات القرآنية في هذا الشأن يعلم قيمته وأهميته بالنسبة للصراع، ولهذا ينبغي للمجاهد في سبيل الله أن يكون مطلعاً على فقه هذا الجانب، حتى يعرف كيف يتعامل معه أثناء معركته مع أهل الباطل.

وقد جاء القرآن الكريم محيطاً بزوايا وأبعاد هذه القضية، ومعالجاً لها بأساليب شتى، فمما جاء من المعاني في كتاب ربنا عنها:

المعنى الأول: أن المكر والكيد هو سنة دائمة لأهل الباطل ممن كان قبلنا:

فقد قال تعالى: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ وقال في آية أخرى: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا**﴾ فما دام أن الصراع موجود ومحتدم فإن المكر قائم بل هو أساسه.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن مكر الأقوام بأنبيائهم، فذكر بعض مكر قوم نوح بقوله: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**﴾.

وذكر بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾.

وذكر بعض مكر اليهود بعيسى ابن مريم – عليه الصلاة والسلام – بقوله: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾.

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾.

المعنى الثاني: أن أهل الباطل يجمعون كل ما قدروا عليه من الكيد والمكر:

بحيث أنهم يجمعون في هذا الكيد طاقاتهم ويجمعون فيه رأيهم، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿**فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**﴾.

فأخبر سبحانه أن فرعون جمع كيده ثم أمر سحرته بأن يجمعوا كل كيدهم ضد موسى – عليه السلام –، فلا يدخر أهل الباطل في الكيد والمكر شيء ما دام أنه في نطاق مقدورهم ولو كان في الشناعة ما كان.

المعنى الثالث: عظم مكر وكيد أهل الباطل:

فقد قال تعالى عن أهل الباطل: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**﴾ أي: عظيماً كبيراً، وقال تعالى عنهم: ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ فأخبر أن مكرهم تكاد تزول منه الجبال، على قراءة فتح اللام في قوله "**لتزول**"، وقال تعالى في وصف مكرهم: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا**﴾ فتنكير المكر هنا للتعظيم، وقال تعالى في دأبهم على المكر ومداومتهم عليه: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾.

وهذا الوصف العظيم لمكر الكافرين عندما يكون مجرداً عن مقارنته بمكر الله، وأما عندما يقارن بمكر الله تعالى، فإن هذا المكر يكون لا شيء، بل يكون مكرهم لأنفسهم مكراً عليهم وهم لا يشعرون كما سيأتي.

المعنى الرابع: أن الله تعالى عليم بمكرهم وكيدهم ومحيط به:

كما قال تعالى: ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**﴾.

المعنى الخامس: أن الله تعالى يقابل مكر الكافرين وكيدهم بمكره سبحانه:

فكل مكر وكيد لأهل الباطل في كتاب الله تعالى، فالله تعالى له بالمرصاد بمكره وكيده وهم لا يشعرون بهذا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ وقال: ﴿**أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ**﴾ وقال: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ**﴾ أي: إن كادوا أمراً وأحكموه كدنا مثله.

وهنا معنى عظيم وهو أن الباطل يكيدون لأنفسهم، وأما أهل الحق فإن الله تعالى يكيد لهم ويمكر لهم بعدوهم، والله عز وجل لم يذكر في كتابه أي كيد لأهل الحق مطلقاً في مقابل كيد أهل الباطل، بل يذكر كيده هو سبحانه، وهذا معنى يجعل المؤمن لا يخشى أو يحزن من كيد أهل الباطل.

المعنى السادس: وصف مكر الله المقابل لمكرهم:

فالله تعالى وصف كيده لأهل الحق بأهل الباطل بأوصاف جليلة، فمن ذلك قوله سبحانه في سرعة مكره: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾ وأخبر سبحانه أنه خير الماكرين فقال: ﴿**وَمَكَرُوا**

وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وأخبر سبحانه أنه يملك المكر جميعاً فقال: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾**.

في مقابل وصفه كيد الشيطان لأوليائه من أهل الباطل بأنه ضعيف فقال: ﴿**فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾**.

المعنى السابع: أن كيد الكافرين في ضلال وانقطاع وزوال:

فهو ضائع لا يحقق أهدافه كما أريد له، فإنهم بين أمرين: إما مكر وكيد يكون في ظاهره حرب على المجاهدين، ولكنه في علم الله تعالى وحكمته يكون فيه خير وصالح للمجاهدين ووبال على أعداء الدين، سواء ظهرت لنا هذه المصالح أم غابت عنا، فهذا المكر لا شك أنه ضائع الهدف والنتيجة، ولا يحقق لهم ما يريدون كما حدث في عهد النبي ﷺ يوم أحد وما فيها من الحكم والمصالح للصحابة رضوان الله عليهم.

وإما أن يكون مكراً وكيداً يكون في حقيقته ضرر على الاسلام وأهله، فهذا يكفي الله تعالى عباده المجاهدين من وقوعه ويصرفه عنهم ولا يحقق لهم وقوعه بإذنه سبحانه، كما كفى الله تعالى المسلمين يوم الخندق من دخول المشركين عليهم وقد جمعوا كيدهم.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** ويقول أيضاً: ﴿**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾**.

ويقول تعالى عن أصحاب الفيل الذي أرادوا هدم الكعبة: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾** ويقول عن فرعون: ﴿**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾** أي: إلا في ضلال وخسار.

وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** أي: لا ينفذه ولا يسدده.

بل – وهو المعنى الثامن الذي يلي هذا المعنى – أن أهل الباطل إنما يمكرون بأنفسهم ويكيدون بها وهم لا يشعرون:

أي: أن نتائجه عكسية عليهم، فالله عز وجل يقلب نتائج هذا المكر عليهم وهم لا يشعرون، بل يظنون أنهم قد أتوا من المكر والكيد ضد أهل الحق بما يهلكهم أو يضعفهم، ولكن في حقيقة الأمر تنقلب عاقبة هذا المكر في صالح أهل الحق ويكون قوة لهم وحسرة على الكافرين.

وكذلك يعجل هذا المكر نقمة الله وعذابه عليهم، فيرتد عليهم بذلك.

قال تعالى: ﴿**اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**﴾ أي: لا يحيط ويحل المكر السيء إلا بأهله.

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾.

وذلك مثل قوله تعالى في مكر أهل الباطل في إنفاقهم لأموالهم ليصدوا عن الحق، ولكن في النهاية تعود هذه الأموال غنيمة للمجاهدين وحسرة على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾.

المعنى التاسع: أن الله تعالى يأتي أهل الباطل وهم في غمرة مكرهم في عنصر قوتهم وقواعد أركانهم وهم لا يشعرون:

كما قال تعالى: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**﴾.

ويقول تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾.

المعنى العاشر: أن الله توعد الماكرين والكائدين بعذاب شديد وعاقبة مكرهم الدمار والهلاك:

كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾.

ويقول تعالى: ﴿**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾.

المعنى الحادي عشر: أن من كيد الله تعالى بأهل الباطل الاملاء لهم:

فبقاء الكفار وتأخير النقمة والعذاب وانفتاح أمور الدنيا لهم؛ هو من مكر الله تعالى وكيده بهم، كما قال تعالى: ﴿**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾.

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**﴾.

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**﴾.

وقوله: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾.

المعنى الثاني عشر: أن الله تعالى يقي أهل الحق مكر أهل الباطل ويصرف كيدهم فلا يضرهم شيء منه:

فالله تعالى بولايته لعباده المؤمنين ومكره بأهل الباطل؛ إما أن يصرف كيد أهل الباطل بالكلية عن تطبيقه، أو تحقيق أثره على الأرض، ويقي أهل الحق هذا المكر والكيد، كما قال تعالى عن مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**وَإِنْ**

يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾** وقال تعالى عن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾** وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾** وقال عن يوسف – عليه السلام – وكيد النسوة به: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**.

وعن أبي هريرة – ﷺ – عن النبي ﷺ قال: «**بينا إبراهيم ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر**» متفق عليه.

وإما أن الله تعالى يضعف كيد أهل الباطل ويضعف أثره ونتائجه على أرض الواقع فلا تصل إلى ما أرادوا، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾**.

المعنى الثالث عشر: أنه ينبغي للمؤمن ألا يضيق من مكر الكافرين وكيدهم:

فعندما يرى المؤمن المكر الكبار للكفار والمشركين، فعليه ألا يضيق بذلك نفساً إذا كان يوقن أن الله تعالى مولاه ومعه، ويستحضر كل المعاني السابقة في أن الله تعالى يقيه شر مكر الكفار ويوهن كيدهم ويمكر بهم، وغير ذلك مما سبق وأن أشرنا إليه.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**﴾.

المعنى الرابع عشر: أن على المؤمن أن يقابل هذا المكر والكيد بالتوكل على الله والتعلق به:

كما أخبر الله تعالى عن حال الأنبياء مع كيد أقوامهم فقال عن قوم هود: ﴿**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

ويقول تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾.

***

الوقفة الثانية عشر: بين الرعب والتهويل

لا شك أن من عوامل النصر في المعارك الشجاعة والصبر والسكينة والطمأنينة؛ ومحلها القلب والجوارح له تبع، فإن أمر أطاعوه، فثبات القدم والإقدام على الأخطار تبع لصبر القلب وثباته، وانهزام الرجل وتولي الدبر هو استجابة لخوف القلب ورعبه وجزعه، فزمام الجوارح بيد القلب، وفي غمرة الصراع ومعترك النزال بين الحق والباطل، يكون للباطل على الحق صولات وجولات وحملات كما يكون للحق عليه، ويعد أهل الباطل العدة ويجمعون ما قدروا عليه من أسباب المادة والقوة ويستكثرون الجند والعدد بما قد يفوق ما عليه أهل الحق، يصاحب هذا إرجاف وتخويف وإرهاب وحرب نفسية يشنها أهل الباطل في تخويف المؤمنين وإرهابهم، بدءاً بالتخويف من باطلهم الذي يحملوه وآلهتهم التي يتوهمون فيها القوة والقدرة، مروراً بالتخويف من قوتهم وعدتهم وعددهم وتجهيزاتهم وغير ذلك، وانتهاء بتهويل الشيطان ومحاولة تخويفه لأهل الحق من أوليائه المشركين، ثم بعد ذلك يأتي إرجاف من في قلبه مرض من الصف الداخلي ممن استجاب لما سبق، كل هذا من أجل زرع الخوف في قلوب أهل الحق من أجل أن يجلب لهم الانهزام النفسي والانهزام على أرض المعركة، فيقول تعالى عن المشركين في تخويف أهل الحق من آلهتهم الباطلة: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾.

ويقول تعالى عن رد إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – على قومه في محاولتهم تخويفه من آلهتهم: ﴿**وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80)**﴾.

ويقول تعالى عن محاولة المشركين تخويف أهل الحق من عددهم وعدتهم: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾ وهذه الآية تتكلم عن حال المسلمين في أعقاب غزوة أحد مباشرة، عندما وصل خبر للمسلمين أن أبا سفيان والمشركين قد جمعوا الناس لغزو المدينة واستئصال المسلمين، فكان الهدف كله من هذه الإشاعة ومن هذا الجمع هو قوله: ﴿**فَاخْشَوْهُمْ**﴾.

ثم يأتي دور الشيطان وكيده الضعيف لأوليائه في تهويل وتضخيم هذه القوة للأعداء، وتخويف المؤمنين من أوليائه عبر الوسوسة في قلوبهم؛ من أجل استزلال أقدامهم، فيقول تعالى بعد الآية السابقة من إشاعة خبر جمع المشركين ضد المسلمين عقب أحد: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ**

مُؤْمِنِينَ﴾ أي: يخوفكم بأوليائه، يقول مجاهد كما رواه ابن جرير عنه: «قال: يخوّف المؤمنين بالكفار»، وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك، قوله: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ قال: يعظم أولياءه في أعينكم.

ولكن هذا الدور الذي يجتهد الشيطان في بثه لا يتعدى الوسوسة في القلب التي بمقدور المرء رده أو الاستجابة له وليس له سلطان على قلب المؤمن.

وبعد ذلك كله يأتي دور المرجفين في الصف الداخلي في بث الخوف وتهويل قوة الكفار، فيقول تعالى: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾ أي: إذا جاءهم خبر عن أمر عام فيه مما يبعث على الأمن أو يبعث على الخوف أذاعوا به ونشروه بين الناس.

ولهذا جاء الإرشاد القرآني والهدي النبوي في كيفية التعامل مع هذا التهويل والتخويف والإرجاف، حتى يكون أهل الحق على بينة من أمرهم، فأول هذا الأمر؛ الاعتصام بالله مولى المؤمنين والتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ يقول ابن كثير – رحمه الله –: "أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به، وقالوا: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾" انتهى.

وقد ذكر الله تعالى عاقبة هذا الاعتصام به سبحانه في كفايته لعباده شر الأعداء، فقال مباشرة عقب هذه الآية: ﴿**فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾.

وعلى أهل الحق أن يستحضروا أن هذه الأدوار التي يفعلها أهل الباطل ووليهم؛ لا تعدو في الغالب أن تكون تخويف بالكلام، ووساوس شيطانية، وإرجاف شائعات؛ ليس وراءها حقائق حية أو واقع مشاهد، وإذا خرجت إلى الحقيقة بالفعل؛ فإنها أقل بكثير وأضعف مما يخبرون عنه ويروجون له أو مما قد يجول في خواطر أهل الحق، وفي النهاية لن تحقق نتائجها، ولن تضير المؤمنين شيئاً ما داموا متوكلين على الله تعالى معتصمين به سبحانه.

فلا يأذن إلى الإرجاف مصغ تميل به العدا أنّى تميل

بل إن هذا مما يزيد أهل الحق إيماناً وثباتاً وتوكلاً على الله تعالى وتسليماً لقضائه وقدره، كما قال في الآية السابقة: ﴿**فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ وقال: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾.

ومما على أهل الحق الأخذ به؛ طرح الخوف من أهل الباطل وقوتهم وكيدهم وانتشاله من القلب، وتوحيد الله تعالى بالخوف دون غيره، كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وقال أيضاً: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾ وقال مكرراً لهذا النهي: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾ وقال منكراً على من يخشى من قتال الكفار: ﴿**أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ وقال مثنياً على من يوحده بالخشية: ﴿**يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ وقال سبحانه حاصراً الرهبة به دون غيره: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ وقال مخاطباً موسى عندما أمره بالمسير إلى فرعون مع أخيه لدعوته: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾.

وعليه أن يستحضر في مقابل هذا التهويل والتخويف والإرجاف؛ ما يترتب على الاعتصام بالله تعالى والالتجاء إليه في هذا الموطن؛ من أن الله تعالى يلقي السكينة في قلوب المؤمنين ويربط عليها عند وجود مظاهر الخوف؛ ويثبتهم ويؤمنهم بالنعاس، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾.

وقال أيضاً: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾.

وقال: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾.

وقال عن غزوة حنين: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾.

وقال عن يوم بدر: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾.

وقال عن يوم أحد: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ**﴾.

روى البخاري عن أبي طلحة الأنصاري – ﷺ – قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه».

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عنه قال: «رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر فما أرى أحداً من القوم إلا يميد تحت جحفته من النعاس».

وكذلك في مقابل تهويل الشيطان، يأتي تهوين الله تعالى لقوة العدو وتقليل أعدادهم في النظر لتقوية قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾.

وبعد هذا كله وفي مقابل وسوسة الشيطان وكيده الضعيف، فإن الله تعالى يزلزل الكفار ويقذف الرعب في قلوبهم من قوة أهل الحق؛ والتي قد تكون متواضعة أو بسيطة بما لا يستطيعون معه دفع هذا الرعب عن قلوبهم، فيعظم قوة أهل الحق في قلوبهم حتى تكون أعظم من حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾.

وقال في غزوة الأحزاب عن اليهود: ﴿**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾.

وقال في سورة الحشر: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾.

وجاء في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ دعا يوم الأحزاب على المشركين، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**».

وقد بين الله تعالى في كتابه أن سبب إلقاء الرعب في أهل الباطل هو الشرك، فقال: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾ وفي المقابل أثبت أن أهل التوحيد هم الأحق بالأمن، في مقابل أن أهل الشرك أحق بالخوف، فقال تعالى عن إبراهيم في خطابه لقومه المشركين: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾.

وقد عبر الله تعالى بما يوقعه في قلوب الكفار بالقذف، والذي يفيد رمي هذا الأمر وهجومه دفعة واحدة على قلوبهم، فلا مدافع له ولا تدريج فيه، وعبر أيضاً بالرعب وهو شدة الخوف، أي ليس ما يقع في قلوبهم مجرد الخوف؛ بل أعلى درجات الخوف، ولهذا كان من عادتهم كما أخبر الله عنهم الفرار وتولية الدبر عند القتال، لشدة خوفهم وجبنهم، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**﴾ ولا يستغرب هذا من حالهم لتشبثهم بالدنيا وحبهم وتعلقهم بالحياة، ويود الواحد منهم لو يعمر ألف سنة على خلاف أهل الحق الذين يؤثرون الموت في سبيل الله، ويقدمون الآخرة على الدنيا.

وكفى بهذا قوة وتثبيتاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

مضى على الحق لم تعصف بهمته ريح الضلال ولم يحفل بتهويل

***

الوقفة الثالثة عشر: مقتل القادة

فإن الناس لابد لهم من سراة ورؤساء ينظمون شؤونهم ويسوسون أمورهم وإلا لضاعت مصالحهم، ولم يتم لهم شأن:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا ســـراة إذا جهـــالهم ســـادوا

وأوكد ما يكون ذلك في الجهاد، كما قال تعالى: ﴿**ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ فطلبوا قائداً يقاتلون تحته الأعداء، وذلك لأن شأن الجهاد والمجاهدين ليس شأن مجموعة في سفر، أو مؤسسة ومنظمة في حضر، قد لا يترتب على الإخلال بتنظيم شؤون الإمارة والقيادة فيها كبير مفاسد، بل شأن الجهاد أعظم من هذا بكثير، فإن النتائج التي يحققها عظيمة بالنسبة للمسلمين، سواء أكانت النتائج إيجابية بالنكاية والنصر والتمكين والفتوحات أو سلبية بالهزائم والابتلاءات والشدائد، وهذا يقع عبئه بالدرجة الأولى على كاهل الإمارة، ولهذا يتطلع الناس إليها وتتعلق قلوبهم بها.

وطبيعة الصراع بين الحق والباطل تستلزم ولابد مقتل علية القوم وخيار أهل الحق كما ورد، فقد جاء في قصة بيعة الأنصار مع النبي ﷺ قبل الهجرة أن أسعد بن زرارة – وهو من الأنصار – قال مختبراً لصدق الأنصار لما أرادوا البيعة: «رويداً أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها».

ومقتل الأمراء والقادة هو من جملة الفتن والابتلاءات التي يمتحن الله تعالى بها عباده، ويعلم بها المؤمن من المنافق والثابت من الناكص، بل قد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن حوالة – ﷺ – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من نجا من ثلاث، فقد نجا – ثلاث مرات –: موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه**» فقد قرن هذا بفتنة المسيح الدجال، ومن تأمل ما جرى في غزوة أحد عندما أشيع أن النبي

ﷺ قد قتل من تزلزل النفوس واضطراب الأمور، ثم ما نتج عن وفاة النبي ﷺ من ارتداد أكثر العرب الذين أسلموا في زمانه علم حجم الفتنة بهذا الأمر، صحيح أن النبي ﷺ له مزية على بقية الأمراء والخلفاء من بعده بكونه نبياً يوحى إليه، وأن فقده بذلك ليس كفقد غيره، ولكن لا ننسى أن جانباً كبيراً من المفقود أيضاً أنهم فقدوا النبي ﷺ كقائد يقودهم.

والناس عامة في التعلق بالأمراء والقادة على أحوال:

الأولى: التعلق بالقادة من حيث الدين كله، فإذا مات أو قتل القائد ارتد وترك الدين كله؛ كما وقع من بعض أهل الريب والنفاق يوم أحد؛ كما سيأتي الكلام عليه، وكما حصل من المرتدين من العرب عندما مات النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: التعلق من حيث الجهاد، فإذا مات القائد أو قتل في الجهاد ضعف المجاهدون وترك الجهاد؛ كما حصل من بعض الصحابة يوم أحد، عندما صرخ فيهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، ففروا إلى المدينة تاركين ميدان القتال.

الثالث: التعلق بهم من حيث حصول الضعف في العزائم، وخمود النشاط مع الثبات على طريق الجهاد؛ كما حصل من بعض الصحابة يوم أحد عندما بلغهم أن النبي ﷺ قد قتل.

كما روى ابن إسحاق أن أنس بن النضر – ﷺ – انتهى يوم أحد إلى جمع من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمدٌ رسول الله! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله! واستقبل القومَ فقاتل حتى قتل.

الرابع: التعلق بالقادة من حيث النصر، فإذا كان معهم هذا القائد تعلقت قلوبهم به أنه سيحصل لهم النصر والظفر؛ كما حصل من بعض الناس عندما تعلقوا بخالد بن الوليد – ﷺ – في الجهاد في الفتوحات الاسلامية، وكان هذا من أسباب عزل عمر – ﷺ – له وكذا عزل المثنى بن حارثة.

فقد روي عن عمر – ﷺ – أنه قال: «لأنزعن خالداً ولأنزعن المثنى حتى يعلما أن الله ينصر دينه، ليس إياهما».

وجاء عنه قوله: «إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما».

وقد جاء الشرع الحكيم بإبطال هذه التعلقات، وجعل التعلق بالله وحده في كل الأمور، وجاءت سورة آل عمران عقب أحداث غزوة أحد وما اختلجها من إشاعة مقتل النبي ﷺ لتعالج هذه القضية عند الصحابة، ولتكون نبراساً لمن بعدهم يعرفون به كيف يتعاملوا معها التعامل الشرعي الصحيح، فقد أنكر الله تعالى على من ترك دينه أو ضعف عنه بسبب مقتل أو موت القادة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾.

روى الطبري من طريق قتادة في هذه الآية قال: «ذاكم يوم أحُد، حين أصابهم القَرْح والقتل، ثم تناعوا نبي الله ﷺ تَفِئة ذلك، فقال أناسٌ: «لو كان نبيًّا ما قتل»! وقال أناس من عِلْية أصحاب نبي الله ﷺ: «قاتلوا على ما قاتل عليه محمدٌ نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به!» فقال الله عز وجل: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾ يقول: إن مات نبيكم أو قُتل، ارتددتم كفارًا بعد إيمانكم!».

وروى ابن جرير من طريق السدي في أحداث تلك الغزوة قال: "وفشا في الناس أنّ رسول الله ﷺ قد قُتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: «ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمَنَةً من أبي سفيان!! يا قوم، إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم!» قال أنس بن النضر: «يا قوم، إن كان مُحَمَّد قد قُتل، فإن رب مُحَمَّد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه مُحَمَّد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء!» ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل.

وانطلق رسول الله ﷺ يدعو الناس، حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجُل سهمًا في قوسه فأراد أن يرميه، فقال: «**أنا رسول الله!**» ففرحوا حين وجدوا رسول الله ﷺ حيًّا، وفرحَ رسول الله ﷺ حين رأى أنّ في أصحابه من يمتنع به، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا.

فقال الله عز وجل للذين قالوا: إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾.

...وعن أبي نجيح أنّ رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدًا قد قتل! فقال الأنصاري: إن كان مُحَمَّد قد قتل فقد بلَّغ! فقاتلوا عن دينكم.

...وعن ابن جريج: قال: أهل المرض والارتياب والنفاق، حين فرّ الناس عن النبي ﷺ: «قد قتل مُحَمَّد، فألحقوا بدينكم الأول»! فنزلت هذه الآية." انتهى باختصار.

فهذا التعامل الشرعي المتوازن مع قضية الأمراء والقادة؛ بأن يقر بمكانتهم ومنزلتهم، ولكن لا يعطوا فوق تلك المكانة والمنزلة بالتأثر بفقدهم سلباً؛ سواءً أكان ضعفاً أو نكوصاً عن الجهاد أو ارتداداً عن الدين، فوجود أحد هذه النتائج يعلم به أن المجاهد قد أعطى القائد والأمير فوق ما ينبغي له، ويعلم به أيضاً أن قلبه ليس خالص التعلق بالله؛ بل هناك نوع ركون وتعلق بالقائد وانصراف بالقلب إليه، ومن كان هذا شأنه كان دينه عرضة للتقلبات على طول الجادة؛ صعوداً وهبوطاً زيادة ونقصاناً وربما انتكاساً، وكل هذا بسبب الانجذاب الكبير نحو القائد والذوبان في شخصيته، فالتعامل الشرعي في مثل هذا الظرف هو الثبات على الدين والمبادئ، والاستمرار في العطاء والبذل وإكمال المسير على نفس الطريق وذات الهدف، ولا يحقب دينه ويتبعه الرجال وجوداً وفقداً.

ولهذا نجد أن الله تعالى يهيئ ويمهد لأصحاب رسول الله ﷺ بالتنبيه على أن النبي ﷺ سيموت، بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ وكذلك بالتهيئة الفعلية يوم أحد عندما أشيع بأن النبي ﷺ قد قتل، ثم ما نزل من الآيات في معالجة هذا الأمر لدى الصحابة، لتقطع هذا التعلق وتوضع الأمور في موازينها، حتى إذا مات النبي ﷺ فعلاً ووقع الأمر حقيقة؛ جاءت مقولة أبي بكر الصديق الخالدة لتحسم مادة التعلق من جذورها وتصلها بمن يستحقه: «من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حي في السماء لا يموت!» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**...﴾ الآية، فاطمأن الصحابة – رضوان الله عليهم – وسكنت نفوسهم، وأكملوا المسير على نفس الطريق الذي رسمه لهم النبي ﷺ.

يقول سيد قطب – رحمه الله – في الظلال على ما جرى في غزوة أحد: "وكأنما أراد الله – سبحانه – بهذه الحادثة وبهذه الآية، أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي – ﷺ – وهو حي بينهم، وأن يصلهم مباشرة بالنبع.. النبع الذي لم يفجره مُحَمَّد – ﷺ – ولكن جاء فقط ليومئ إليه، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق، كما أومأ إليه من قبله من الرسل، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه! وكأنما أراد الله – سبحانه – أن يأخذ بأيديهم، فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى.. العروة التي لم يعقدها مُحَمَّد – ﷺ – إنما جاء ليعقد بها أيدي البشر، ثم يدعهم عليها ويمضي وهم بها مستمسكون! وكأنما أراد الله – سبحانه – أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط.. حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة، التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول – ﷺ – أو يقتل، فهم إنما بايعوا الله.. وهم أمام الله مسؤولون! وكأنما كان الله – سبحانه – يعدّ الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى – حين تقع – وهو – سبحانه – يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم.. فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول.

ولقد أصيبوا – حين وقعت بالفعل – بالدهش والذهول.. حتى لقد وقف عمر – رضي الله عنه – شاهراً سيفه، يهدد به من يقول: إن مُحَمَّداً قد مات! ولم يثبت إلا أبو بكر، الموصول القلب بصاحبه، وبقدر الله فيه، الاتصال المباشر الوثيق.. وكانت هذه الآية – حين ذكرها وذكّر بها المدهوشين الذاهلين – هي النداء الإلهي المسموع، فإذا هم يثوبون ويرجعون!" انتهى.

وكذا فعل عمر – رضي الله عنه – كما سبق لما عزل خالداً والمثنى؛ كل هذا مراعاة لنفوس الناس ومنع وقوع التعلق بالقادة، وتربيتهم على التعلق بالله تعالى وحده، فقد قال في عزل خالد: «إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة».

أي: لا يتعلقوا بشيء عارض لا يبقى فيكون لهم فتنة، والله تعالى هو الصانع والمدبر والنصر والتوفيق بيده ولا يكون إلا من عنده، كما قال تعالى: ﴿**إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ وقال: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ**﴾ فليس هو بأيدي القادة والأمراء ولا بيد كائناً من كان، مهما بلغ في الحنكة والذكاء والقيادة، فإن نصر الله تعالى لا يتوقف على القادة

وحنكتهم – وإن كان من جملة الأسباب التي أمرنا باتخاذها – وإن خذلان الله تعالى لا يجبره حنكة القائد وذكائه.

وقد امتدح الله تعالى الذين يثبتون ولا يهنون بعد مقتل أنبيائهم في الجهاد والحرب مع الأعداء قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ وذلك على قول من يرى أن الضمير في قوله تعالى ﴿**قُتِلَ**﴾ عائد على النبي وعلى بعض الربيين؛ كما هو اختيار ابن جرير وغيره، أي: وكأين من نبي قتل وقتل معه ربيون وجماعات كثيرة، فما وهن الجماعة الباقون لما أصابهم في سبيل الله بمقتل أنبيائهم وإخوانهم ممن كان معهم.

فنعم القدوة هؤلاء للمجاهدين في سبيل الله عند مقتل قادتهم أن يثبتوا على دينهم ويصبروا على جهادهم، ويتمسكوا بمبادئهم ويسيروا على طريق من سبقهم ولا يضعفوا أو يطرقهم الحزن والوهن بسبب ذلك.

وما أجمل قول السلطان المملوكي قطز في معركة عين جالوت في هذا الشأن، فقد نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: "أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوَشَاقِيَّةِ الذين معهم الجَنَائِبُ، فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً، والقتال عمال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك.

ولم يزل كذلك حتى جاءته الوَشَاقِيَّة بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام" انتهى.

وفي الروضتين لأبي شامة عن الأمير نور الدين زنكي – رحمه الله – لما أخبر عنه أنه "كان يباشر القتال بنفسه، وكان يقول: «طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها» فسمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك، فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، ولئن أصبت

والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وأخذت البلاد، فقال: يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلي؟! من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو" انتهى.

فعلى المجاهد في سبيل الله أن يعلق قلبه بالله تعالى لا بأمرائه وقادته، فهو مولاه الأعلى الحي الذي لا يموت، الصانع الذي يدبر شؤونه وشؤون الجهاد ويصرف الأمور على ما فيه خير وصالح للمسلمين، وعند مقتل أحد القادة فإنه لا يغفل عن بقاء مولاه سبحانه، فإذا كان القائد الذي يتولى أمر المجاهدين بتقدير الله قتل أو مات، فإن الله تعالى الذي يتولى أمر المجاهدين على الحقيقة حي لا يموت فيركن إليه ويحسن الظن به تعالى ويطرح سوء الظن به كما أمر بذلك، وإن من إحسان الظن به تعالى الظن بأنه لن يخذل أولياءه المجاهدين، وسيقيم لهم ما يحتاجون إليه من أمراء وقادة، وأنه سينصر عباده المجاهدين وأن عجلة الجهاد لن تتوقف أو تتأثر بذلك، وأن في تقدير ذلك خير للمجاهدين فإن ذلك كله من التفاؤل وحسن الظن بالله تعالى.

وتذكر أخي المجاهد أن الله تعالى تكفل بنصر المجاهدين في سبيله، وهذا تكفل – بالضمن – بأسباب النصر الكونية من توفير المال والسلاح والقادة والأمراء والرجال وسد النقص، عندما يحتاج النصر إلى وجود هذا الأمر، فإن الله تعالى بحوله وقوته سيوجده ويبرزه للمجاهدين كما أوجد غيرها من الأسباب مع كثرة الخاذل وقلة المعين، وكما يوجد الله تعالى جيلاً جديداً للجهاد باستبدال القاعدين، ولكن كل شيء له وقته المناسب الذي يقدره رب العزة والجلال.

وما حال القادة والكفاءات بالنسبة للجهاد وأهله؛ إلا كحال تقلب البسط والسعة والقبض والضيق في خزائن الأموال بموازين الله تعالى على حسب حاجة المجاهدين ومراحلهم، فخزائن الرجال ملأى كخزائن الأموال، ولكن ما يريد الله تعالى وصوله للمجاهدين فإنه بقدر معلوم حسب تدبير الله تعالى، فإنه لو زاد المال أو الرجال لاحتمل أن يفضي بالمجاهدين إلى استباق مراحل لا تناسب واقعهم، أو الإقدام على أعمال قد تضر بهم.

وإذا كانت راية الجهاد ستبقى محمولة مرفوعة دائماً إلى يوم القيامة، فإن الحاملين سيكونون معها يسلمها الأول للذي يليه إلى أن تضع الحرب أوزارها بمقتل الدجال.

وليعلم بأن الفتح والتوفيق ليس محصوراً بقائد معين وأمير معين لا يحالف إلا هو، بل الله تعالى ينصر من يشاء من عباده بمن يشاء من عباده، والأمة ما زالت ولوداً وفيها خير كثير والحال كما قال الشاعر:

وإنّي من القومِ الذين عرفتَهم إذا فاتَ منهم سيّدٌ قام صاحبُهْ
نجومُ سماء كلَّما غابَ كوكبٌ بدَا كوكب تأوِي إليه كواكبُهْ

ويقول آخر:

إذا مات منهم سيّد ودعامة بدا في ركاب المجد آخر صالحُ

وقد جعل الله تعالى في مقتل القادة حكم لا تظهر إلا بذلك منها:

أولاً: نزع التعلق بالمخلوقين، فعندما يكون الظفر والنصر والتوفيق حليف قائد تنصرف إليه قلوب الناس، وتتعلق به أكثر من تعلقها بالله تعالى كما سبق الإشارة إليه، وهذا قد يكون سبب لخذلان الله تعالى، فإن من تعلق شيئاً وكل إليه، فيصطفي الله تعالى هذا القائد بالشهادة حتى يصرف قلوب المجاهدين إليه سبحانه والتعلق به دون خلقه.

ثانياً: أن في قتل القادة اختبار للناس وابتلائهم، وتمييز لصفوف المجاهدين من المنافقين والدخلاء وقد سبق الإشارة إلى شيء من ذلك.

ثالثاً: اصطفاء هذا القائد بالشهادة، فالشهادة مطلب للجميع قادة وأتباعاً، وليس من المعقول أن يبقى هذا القائد مخلداً، وكما يصطفي الله تعالى الأتباع بالشهادة كذا القادة يصطفون بالشهادة.

رابعاً: أن في قتل القادة إثبات أن المنهج منهج عدل لا تمييز في طريقه بين قائد وغيره، فالجميع ينالهم الخوف والجميع ينالهم الجراح، والجميع ينالهم القتل والمصائب.

خامساً: إحياء قلوب الناس بقتل هؤلاء القادة، وتأثر الناس بدعوتهم ومنهجهم، فإن دعوة الدماء تؤثر في القلوب ما لا يؤثره مداد العلماء، ولا الخطب العصماء، هذا ملحوظ ومشاهد، فلئن كان القائد يناصر

المجاهدين بعرقه في حياته، فإنه يناصرهم كذلك بدمه عبر استشهاده، يقول سيد قطب – رحمه الله – في الظلال: "وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال." انتهى.

وغير ذلك من الحكم.

وأخيراً وحتى تقطع جميع العلائق إلا من الله تعالى، فإن المجاهد في سبيل الله مكلف بالقتال في سبيل الله ولو لم يبق إلا وحده في الميدان: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾.

***

الوقفة الرابعة عشر: الجهاد البشري والجهاد الملائكي

النقص والتقصير والخطأ من طبيعة البشر، فلم يخلق الله تعالى الدنيا دار كمال، وإذا كان هذا سجية لازمة لبني آدم، فإن نتائجه ستظهر ولابد على الآراء والتصرفات والأفعال التي تصدر منهم بظهور الخطأ في بعضها، والنقص في بعض والتقصير في بعض آخر، ولا يسلم من هذا أحد، مهما بلغ من الإيمان والتقوى والفطنة والدهاء والحنكة والذكاء، سواء أكان تابعاً أم متبوعاً جندياً أم أميراً، فالنقص والتقصير والخطأ شامل للجميع.

ومن جملة النقص الذي يعتري البشر غياب علم المستقبل عنهم أو علم الغيب، وهذا قد يؤدي كثيراً إلى الخطأ في التقديرات ومن ثم إلى فوات الخير الدنيوي أحياناً، ومس السوء أحياناً أخرى، وهذا كله من الابتلاء، كما قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ قال ابن عطية في تفسيره: "وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي، ولاستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء" انتهى.

وقال الشوكاني في تفسيره: "أي: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير؛ فجلبته إلى نفسي، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني" انتهى.

والبشر بحكم خلقتهم وطبيعتهم التي فطرهم الله تعالى عليها يتفاوتون في الدين والايمان، ويتفاوتون كذلك في العقول والمواهب والقدرات والإمكانات قوة وضعفاً، والجهاد في سبيل الله من العبادات العامة الجماعية التي تلم مزيجاً من أطيافٍ شتى من هذا التفاوت الديني والعقلي والإمكاني، كالصلاة والحج التي لا تختص بشخص دون شخص، وبناءً عليه فلابد وأن تبرز مظاهر هذا التفاوت وآثاره بادية على السطح، فلا يوجد جهاد على نسق واحد وطبقة واحدة من لدن رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا، فالجهاد في سبيل الله يجمع المؤمن والمنافق، والعدل والفاجر، والقوي والضعيف، والأمين والخائن، والعالم والجاهل، وكل صنف من هذه الأصناف بالذي فيه ينضح، ولقد كان الجهاد على عهد رسول الله ﷺ يشمل جميع هذ الأصناف، ولا يوجد جهاد ملائكي مثالي على الإطلاق، فالمجاهدون بشر تقاتل معهم الملائكة وليسوا ملائكة يقاتلون

البشر، ولهذا فإن الله تعالى يرسل الابتلاءات لتنقية صفوف المجاهدين، كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾.

والجهاد في سبيل الله وإن كان عبادة من العبادات ومؤطر بأحكام الشريعة؛ فإن تدبير شؤونه وإدارة أموره متجدد وموكل بالواقع وتقديره، ومعرفة المتاح وحركة العدو والسياسة الشرعية وفقه الموازنات، وهذا خاضع للاجتهاد البشري الذي يحتمل الصواب والخطأ، فقد يقع فوات الخير ومس السوء ونحو ذلك من الابتلاءات التي قد تقع في طريق الجهاد بناء على الخطأ في التقديرات كما سبق، ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن جعل جهاد النبي ﷺ يجري على هذا المنوال؛ وهو الاجتهاد البشري في الجملة، ولا يعتمد على الوحي في شؤونه وحركته حتى يشرع للأمة الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ، ولهذا غالب غزوات النبي ﷺ يأتي فيها القرآن مقوماً لها مقراً أو مصوباً للصواب ومبيناً للخطأ وشارحاً للأحوال، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ عقب غزوة أحد: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ وهذه المشاورة تدل على أن النبي ﷺ سيجتهد في الرأي الصواب، ولهذا حدثت بعض الأخطاء في عهد النبي ﷺ وصوبها الوحي أو مشاورة الصحابة، فمن ذلك أن النبي ﷺ سبق قريشاً يوم بدر إلى المكان، ونزل على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟**» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**». فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية.

ومن ذلك أيضاً ما حدث في قضية أسرى المشركين في معركة بدر، فقد استشار النبي ﷺ الصحابة في أمرهم هل يفادي بهم أم يقتلهم؟ فبعضهم أشار بالفداء وبعضهم أشار بالقتل، فاجتهد النبي ﷺ في هذه القضية ورأى المفاداة، فأنزل الله تعالى معاتباً: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

ولما كان يوم الخندق تفاوض النبي ﷺ مع غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا ويكفوا عن القتال؛ فأبوا إلا النصف، فكتبوا الصحيفة ولم يبق إلا عقدها، فاستدعى النبي ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة – رضي الله عنهما – واستشارهما فقالا: يا رسول الله، أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً.

ولما كان يوم تبوك وجاء المعذرون إلى النبي ﷺ ليؤذن لهم في القعود، فأذن لهم النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى معاتباً لنبيه: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

ولما أرسل النبي ﷺ سرية نخلة؛ بقيادة عبد الله بن جحش – ﷺ – وأمرهم أن يرصدوا عيراً لقريش، وكانوا في آخر الشهر الحرام فرصدوها وخافوا أن تفوتهم وتدخل الحرم إن هم أخروها إلى غد، فاجتهدوا ونالوا من العير ورجعوا بالغنيمة، وشنع المشركون عليهم بذلك وشوهوا صورة المسلمين بهذه الغزوة التي بين القرآن أن الصحابة أخطأوا فيها، ولكن أيضاً لم يحرمهم أجر هذه الغزوة وذلك لأنهم اجتهدوا والمجتهد ما بين الأجرين إن أصاب؛ والأجر الواحد إن أخطأ، فروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير، قال: «فلما فرج الله عن المسلمين من أهل تلك السرية، ما كانوا فيه من غم ما أصابوا؛ طمعوا فيما عند الله من ثوابه، فقالوا: يا نبي الله، أتطمع لنا أن تكون غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين في سبيل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾».

وروى عن جندب بن عبد الله – ﷺ – قال:«بعث رسول الله ﷺ رهطاً وبعث عليهم عبد الله بن جحش، فقال بعض المشركين: إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾».

ومن أبرز الأمثلة التي جاء القرآن بالكلام عليها ما حدث يوم أحد، فقد كان النبي ﷺ يميل إلى البقاء في المدينة وأنها حصن حصين ضد الأعداء، وكان الكثير من الصحابة يميلون للبروز للعدو خارج المدينة رجاء أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فأخذ النبي ﷺ بذلك وخرج للمشركين، وقد كان عبد الله بن أبي يؤيد البقاء وعدم البروز، وكان هذا من أسباب انخذاله عن المسلمين بثلث الجيش وعدم حضوره المعركة، وقال كما جاء في السيرة: «أطاعهم وعصاني، والله ما ندري على ما نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، ثم رجع بمن معه من قومه من أهل النفاق وأهل الريب»، ولما وقعت الهزيمة على المسلمين تكلم بعض من يوصف بالنفاق بالطعن في قرار الخروج، وأنه تسبب في وقوع القتل والهزيمة في المسلمين، فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾ فعن الزبير بن العوام – ﷺ –: «لقد رأيتني مع رسول الله – ﷺ – حين اشتدّ الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلَّا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير – ما أسمعه إلَّا كالحلم – يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، لقول معتب» رواه إسحاق في مسنده.

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره: "عن عباد بن منصور، قال: سألت الحسن عن قوله: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾ قال: ذلك المنافق لما قتل من قتل من أصحاب مُحَمَّد، أتوا عبد الله بن أبي فقالوا له: ما ترى؟ فقال: إنا والله ما نؤامر لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا. ﴿ **قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ**﴾".

قال ابن عطية في تفسيره: "يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يقتل أحد منا" انتهى.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "ومعنى لو كان لنا من الأمر شيء أي من شأن الخروج إلى القتال، أو من أمر تدبير الناس شيء – أي رأي – ما قتلنا هاهنا، أي ما قتل قومنا. وليس المراد انتفاء القتل مع الخروج إلى القتال في أحد، بل المراد انتفاء الخروج إلى أحد الذي كان سبباً في قتل من قتل، كما تدل عليه قرينة الإشارة بقوله: (هاهنا)، فالكلام كناية. وهذا القول قاله عبد الله بن أبي ابن سلول لما أخبروه بمن استشهد من الخزرج يومئذ، وهذا تنصل من أسباب الحرب، وتعريض بالنبي ومن أشار بالخروج من المؤمنين الذين رغبوا في إحدى الحسنيين" انتهى.

وقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : «لما أصيبت السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم! فأنزل الله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**...﴾» رواه ابن إسحاق وابن جرير.

فهنا يجلي الله تعالى موقف المنافقين في كونهم عند وقوع بعض الأخطاء والابتلاءات التي قد تترتب عليها، وعندما لا تتحقق الأهداف المرجوة من الأعمال الجهادية يرون أنهم ضائعون مضيعون، ويدفعون الثمن من جراح وقتل وآلام بلا عائد يعود عليهم أو منفعة تتحصل لهم، وكأنهم نسوا أو تناسوا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما من غازية أو سرية، تغزو فتغنم وتسلم، إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية، تخفق وتصاب، إلا تم أجورهم**» رواه مسلم.

إن هذا يبين أن وجود الأخطاء في تدبير شؤون الجهاد أمر وارد ولابد، وأنه ليس بمبرر لترك الجهاد والطعن في أهله، كما أنه ليس بمبرر لتقصير مصدر الخطأ من الأمراء والجند، ولكن فرق بين النصيحة ومحاولة تصحيح الخطأ مع التمسك بالجهاد، وبين ترك الجهاد أو الطعن في المجاهدين بحجة وجود شيء من الخطأ والتقصير.

إن المصالح المترتبة على القيام بعبادة الجهاد عظيمة جليلة، ولهذا نجد في الشريعة مرونة في وسائله وأساليبه كإباحة الكذب والخداع فيه وغير ذلك، كله لتحصيل هذه المنافع العظيمة المترتبة عليه، ولهذا يذكر علماء أهل السنة والجماعة من عقائدهم في كتب الاعتقاد جهاد الكفار مع الأئمة وإن كانوا جورة وفجاراً، فلا يمنع من الجهاد جور الإمام وفجوره، وهذا في جهاد الطلب، ومن باب أولى جهاد الدفع، وكانوا والله فقهاء بصراء، ذلك لأن المصالح التي تحصل من وراء هذا الجهاد – على ما فيه من خلل – والمفاسد التي تترتب

على ترك الجهاد مع هؤلاء؛ أعظم من المفاسد التي تتخلل جهادهم وقتالهم للكفار من جور وظلم ونحو ذلك، وفرق شاسع وبون واسع بين الاجتهادات الخاطئة وبين الجور والفجور.

فالمجاهد في سبيل الله يعلم أن فضيلة الاجتماع والألفة في جهاد الأعداء تغرق في خضمها الأخطاء والنقص والتقصير، وأن هذا كله لا يمنع من واجب النصح والتصويب والإرشاد.

***

الوقفة الخامسة عشر: حفظ اللسان

جاءت الشريعة بنصوصها بالعناية والاهتمام بجارحة اللسان، وذلك لما قد يترتب على ما يتفوه به الإنسان من غضب الإله أو الرضوان، فقد قال تعالى مبيناً أن كل ما يتكلم به المرء فإنه محصى ومكتوب وسيحاسب عليه يوم القيامة: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾.

وعن أبي هريرة – ﷺ – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» متفق عليه.

وقال ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**» متفق عليه.

وروى الترمذي عن معاذ – ﷺ – أن النبي ﷺ قال له: «**ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «**كف عليك هذا**»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**».

وعن أبي هريرة – ﷺ – عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم**» رواه البخاري.

وفي رواية: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

وعن أبي سعيد الخدري – ﷺ – قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا» رواه الترمذي.

والأحاديث والآثار عن الصحابة والسلف كثيرة في بيان خطورة اللسان والمحافظة عليه، قال الغزالي في الأحياء موضحاً سبب هذه الأهمية لهذه الجارحة: "اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان... واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان " انتهى كلامه مختصراً.

وكما يكون القتال والجهاد ضد الأعداء وقتال الأعداء ضدنا بالسيف والسنان؛ فإنه يكون أيضاً بالكلام واللسان، فعن كعب بن مالك – ﷺ – قال: قلت: يا رسول الله قد أنزل في الشعر ما قد أنزل، فقال النبي ﷺ: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم نضح النبل**» رواه ابن حبان بإسناد صحيح.

وقد قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول: "المحاربة نوعان: محاربة باليد ومحاربة باللسان، والمحاربة باللسان في باب الدين أنكى من المحاربة باليد" انتهى .

فالمجاهدون يقاتلون الأعداء بألسنتهم كما أن الأعداء يقاتلون ويحاربون بألسنتهم، فللسان في الجهاد أهمية ومكانة، والآثار والتبعات المترتبة على الكلام فيه متعدية وكبيرة، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، فأحياناً يصنع الكلام ما لا يصنعه السلاح، وتثخن الكلمة ما لا يثخنه حد الصوارم من الجراح، فلئن كان السلاح يقتنص الأجساد فإن الكلام يدمر النفوس والأرواح، فكلمة واحدة تطمئن القلب أو تبث الرعب، ترجف الجيوش وتخذل الجنود، أو تحرض الكتائب والقعود، تفت في الأعضاد وتحرق الأكباد، أو تثلج الصدور وتبعث السرور، تنقض العزائم وتصنع الهزائم، أو ترفع الهمم وتحيي الأمم، تغيظ الأعداء وتفرح الشركاء، وتبلغ الأقطار

والآفاق، وجميع المناوئين والرفاق، فالكلام في الجهاد وأثنائه حساس جداً، فإنه يحسب على أحد الفريقين، وما يزيد في رصيد إحدى الطائفتين ينقص من رصيد الآخر، والعكس صحيح، فالكلام الذي يصب في صالح أهل الحق يسوء الأعداء، كما أن الكلام الذي يسوء أهل الحق يسر الأعداء: ﴿**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾.

واللسان مغراف القلب، فما يجتمع في القلب من معاني وأعمال خفية، فإن اللسان يبينها ويظهرها للحس ويعبر عنها للأشخاص، وكل إناء بالذي فيه ينضح، والمصائب والابتلاءات محك النفوس وامتحان للخبايا والخفايا، وأعمق كوامن النفوس تخطفه كلاليب الابتلاءات، وتنتشله مخالب القروح والآلام، لتقذف به على لحن القول وهفوات الألسن، وحينئذ يتجلى حال المنافقين ومرضى القلوب، وتبرز حقائق البواطن، فتخرج منهم الكلمات اللاذعة والعبارات السيئة من الإرجاف والتهويل، والعويل والتخذيل، والهمز واللمز، والسخرية والاستهزاء، والطعن واللعن، ونشر الخلاف وإشعال الفتن، والهدم واللوم، والخبال والافساد، وإظهار المثالب وإبراز المعايب، وغير ذلك مما قد يخرج من اللسان كما قال تعالى عنهم: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ فهذه الأمور تخرجها الابتلاءات ولا يستطيع المنافقون كبحها؛ كما يفعلون في حال العافية عندما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وقد قص الله تعالى شيئاً من أخبار المنافقين في هذا الشأن فمن ذلك قوله تعالى عن إرجاف المنافقين بألسنتهم: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**﴾.

وأما التخذيل باللسان، فقد قال تعالى عنهم في نهيهم عن النفير في غزوة تبوك وجيش العسرة: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ وقال تعالى عنهم في تخذيلهم عن قتال المشركين ودعوتهم الناس إلى ترك القتال يوم الأحزاب؛ حين داهم خطر العدو المدينة وأحيط بالمسلمين: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا**﴾ وقال أيضاً في تلك الغزوة: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**﴾.

وقال تعالى مخبراً عنهم أنهم لو خرجوا مع المجاهدين لم يزيدوهم إلا إفساداً، ولأسرعوا في نشر الفتنة والخلاف بينهم، وأن من المؤمنين من يستمع لأقوالهم: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾.

ومما نقلته لنا السير من إفرازات عبد الله بن أبي سلول الكلامية في الجهاد، ما جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» فسمع بذلك عبد الله بن أبي، فقال : فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**دعه لا يتحدث الناس أن مُحَمَّداً يقتل أصحابه**» وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد».

وفي رواية للبخاري: «أقد تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

وروى البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم قال: «خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته...».

وقال تعالى مبيناً لمز المنافقين وسخريتهم للمنفقين على الجهاد في سبيل الله: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

وقال في سخريتهم واستهزائهم بالمجاهدين في غزوة تبوك: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ وقد جاء في سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: «قال رجل في غزوة تبوك

في مجلس يوما: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن، قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكيه، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟**﴾».

ومن تلك السخرية ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ**﴾.

ومما أخبر الله تعالى عنهم من توبيخهم للمجاهدين وتشديد اللائمة عليهم عند وقوع المصائب والابتلاءات، قوله تعالى بعد غزوة أحد: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ وقوله تعالى أيضاً في تلك الغزوة: ﴿**يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾.

هذا بعض ما تفوه به المنافقون في جهاد المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، وسيكون هو ديدن من يحذو حذوهم ويسير في طريقهم ونهجهم إلى يوم القيامة، أما المجاهد المؤمن الصادق فإنه يفيض بجواهر الإيمان ولآلئ الأخوة والصدق التي يموج بها فؤاده، فالبلدُ الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خَبُث لا يخرج إلا نَكِدًا، فلا ينطق بالسوء ولا يسلق إخوانه المجاهدين بألسنة حداد، ولهذا كانت أقوالهم عند الابتلاءات طيبة الألفاظ والمعاني، فقال تعالى عنهم بعد غزوة أحد: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ وقال في غزوة الأحزاب عنهم: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾.

ولما كان يوم بدر واستعد النبي ﷺ والصحابة لأول لقاء ذي بال مع المشركين، واهتم النبي ﷺ لهذه المعركة، قال المقداد الكندي مقولة يتمنى شرفها كل مجاهد مخلص، فقال ابن مسعود – رضي الله عنه –: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال:

لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره» يعني: قوله. رواه البخاري.

نعم قد تصدر الزلة من المؤمن الصادق عند وقوع الابتلاء، أو عندما تسير الأمور على غير مراده، ولكنه سرعان ما يتذكر ويراجع نفسه ويتوب من ذنبه وزلته، ويعزم على عدم تكرارها، فمن ذلك ما روى ابن إسحاق في سيرته فقال: وحدثني العباس بن عبدالله بن معبد عن أبيه عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ – أي في غزوة بدر –: «**إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها**» قال: فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العبّاس، والله لئن لقيته لَأُلْجِمَنَّهُ السيف، قال: فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب: «**يا أبا حفص**» قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي حفص «**أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف؟**» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفّرها عنّي الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيداً».

والمراد من هذا أن صدمة الابتلاءات وهجوم المصائب قد تستخف العقول وتطيش لها القلوب، مما يجعل اللسان يفلت من زمامه ويهرب من قيده، فيطلق العبارات التي تزيد في رصيد الأعداء وتدمر نفوس الأصحاب، والمجاهد الصادق هو من يحفظ لسانه في هذه الموطن أكثر من غيره، لأن ما تصنعه الكلمة وتخلفه من الآثار السيئة في هذا الموطن أضعاف ما تصنعه وتخلفه في غيره، بل المجاهد الصادق هو من يسكن النفوس ويطمئن القلوب ويعيد العقول إلى رشدها بكلامه ومنطقه، لا من يضرمها ناراً ويزيدها سعاراً.

***

الوقفة السادسة عشر: ومنهم من ينتظر

للمجاهد في سبيل الله في جهاده هدفان لا يعزبان عنه، إما النصر والتمكين في الدنيا وما يترتب عليه من إعلاء كلمة الله وعزة المسلمين، وإما الشهادة والجنة في الآخرة، وهما الحسنيان اللتان ذكرهما الله تعالى في كتابه، فقال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**﴾ وهما اللذان ذكرهما الله تعالى في سورة الصف فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وهما اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿**وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

ولئن كان النصر مطلباً ومقصداً، فإن الشهادة في سبيل الله هي المقصد الأسمى والثمرة العظمى التي يقطفها المجاهد في جهاده، والفوز الكبير والظفر العظيم الدائم الذي يحصله في نهاية طريقه ومطافه، ففضائلها الكثيرة الشهيرة تحدو النفوس لطلبها وتبعث الهمم وتثير العزائم لبلوغها، وحق لها ذلك، وقد تمناها الرسول صلى الله عليه وسلم عدة مرار، ومع ازدحام الأعمال وغمرة الأشغال في الجهاد؛ قد يغفل المجاهد عن الهدف الأخروي البعيد وهو الشهادة؛ بانشغاله بالهدف الدنيوي القريب وهو إحراز النصر، وهذا قد يدفعه إلى إعظام وإكبار تخلف هذا الهدف أو شيء من أسبابه عند وقوع الابتلاءات والمصائب، ويجعله ينسى هدف الحسنى الأخرى وهي الشهادة، وهذا يؤدي ببعضهم إلى أن يتخلى عن هدف الشهادة في سبيل الله ويترك الجهاد ويتنكب الطريق ويبدل المنهج ويعود أدراجه، وقد جاء في السيرة في غزوة أحد لما أشيع أن النبي ﷺ قد قتل، ما رواه ابن جرير: «أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك مر برجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قد قتل مُحَمَّد رسول الله، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله واستقبل القوم فقاتل حتى قتل».

وروى ابن جرير عن الربيع قوله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾ وذلك يوم أحد حين أصابهم ما أصابهم من القرح والقتل وتداعوا نبي الله، قالوا: قد قتل وقال أناس منهم: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم، أو تلحقوا به.

وفي الطرف المقابل من لا يغفل ولا ينسى هدفه من طلب الشهادة في سبيل الله، فينتظرها ويصبر على الابتلاءات في طريق ذلك حتى يظفر بمراده، ولو لم ير الثمرة من النصر والأمن والتمكين، فإن هدف الشهادة في سبيل الله هو رأس المال الذي يسعى إليه، كما قال النبي ﷺ: «**من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه**» رواه مسلم.

وفي هؤلاء الرجال يقول الله عز وجل: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾.

وقد فسر قضاء النحب بالظفر بالشهادة، وفسر الانتظار بانتظار الشهادة، وقد أثنى الله تعالى عليهم بأنهم لم يبدلوا ولم يغيروا طريقهم ونهجهم هذا، وقد روى البخاري عن أنس – ﷺ –: «عمي الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً» قال: «فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع» قال: «فهاب أن يقول غيرها» قال: «فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد» قال: «فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنة أجده دون أحد» قال: «فقاتلهم حتى قتل» قال: «فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية» قال: «فقالت أخته – عمتي الرُبيع بنت النضر – فما عرفت أخي إلا ببنانه» ونزلت هذه الآية: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ قال: «فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه»».

فالمجاهد الصادق يسعى في حصول الشهادة ويسلك طريقها ويصبر على ما يصيبه في ذاك الطريق حتى يظفر بمراده وبغيته، ولو لم يحصل في جادته إلا ذلك لكان هو الفوز الكبير وإحراز رأس المال، وقدوته في ذلك

أصحاب الأخدود الذين لم يحصلوا ثمرة من ثباتهم إلا القتل في سبيل الله، وقال الله تعالى عنهم: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾.

ومثاله في الأولين سحرة فرعون الذين آمنوا واستسلموا لله تعالى فقال لهم فرعون: ﴿**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. وقالوا له: ﴿**لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾.

وقدوته في الآخرين سرية القراء السبعين التي بعثها رسول الله ﷺ في أمر له، فلما بلغوا بئر معونة غدر بهم المشركون من رعل وذكوان وعصية، فقتلوهم جميعا إلا اثنان، ولم يظفروا بأي عائد دنيوي، ولكن عندما ننظر لها بمنظور أهل الايمان نجد موقف حرام بن ملحان في نفس السرية – وهو خال أنس بن مالك – قال أنس: لما طعن حرام بن ملحان قال: بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

وعندما ينظر لها بمنظور أهل النفاق تجد ما حكاه ابن عباس – رضي الله عنهما — عنهم: «يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم!».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدمة الناشر 4

نبذة عن المؤلف 6

مقدمة المؤلف 8

الوقفة الأولى: سنة الابتلاء 9

الوقفة الثانية: شؤم المعاصي 17

الوقفة الثالثة: حِكم الابتلاء 21

الوقفة الرابعة: الدورة السننية 32

الوقفة الخامسة: فقه العلو 45

الوقفة السادسة: الحزن 54

الوقفة السابعة: الوهن 62

الوقفة الثامنة: الولاية 70

الوقفة التاسعة: حسن الظن بالله 82

الوقفة العاشرة: سوء الظن بالله 94

الوقفة الحادية عشر: دور المكر والكيد 101

الوقفة الثانية عشر: بين الرعب والتهويل 109

الوقفة الثالثة عشر: مقتل القادة 115

الوقفة الرابعة عشر: الجهاد البشري والجهاد الملائكي 124

الوقفة الخامسة عشر: حفظ اللسان 130

الوقفة السادسة عشر: ومنهم من ينتظر 136

بيت المقدس